مذكرة مادة آيات وأحاديث العقيدة (٤٢٤)

لطلاب الانتساب

الفصل الدراسي الأول من العام الدراسي١٤٣٧ – ١٤٣٨ هـ

القسم الأول

النصوص المتعلقة بالإيمان

وفي هذا القسم خمسة نصوص :

النص الأول :

عن عمر ﷺ قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه قال : يا محمد أخبرني على الإسلام ! فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إله سبيلا » قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه قال : فأخبرني عن الإيمان ! قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال : صدقت قال : فأخبرني عن الإحسان ! قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال : فأخبرني عن الساعة ! قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » قال : فأخبرني عن أماراتها! قال : « أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان » قال : ثم انطلق ، فلبثت مليا ثم قال لي: « يا عمر أتدري من السائل ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ! قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » رواه مسلم .

شرح الحديث :

هذا الحديث عظيم الشأن جدا يشتمل على شرح الدين كله ، ولهذا قال رسول الله ﷺ في آخره : «هذا جبريل آتاكم يعلمكم دينكم » بعد أن شرح درجة الإسلام ودرجة الإيمان ودرجة الإحسان فجعل ذلك كله دينا.

وقال النووي: (اعلم أن هذا الحديث يجمع أنواعا من العلوم والمعارف والآداب واللطائف بل هو أصل الإسلام).

وفي الحديث مسائل :

المسألة الأولى: دل الحديث على بعض آداب طالب العلم ، فمن ذلك ينبغي لطالب العلم أن يحسن الجلوس بين يدي العالم على هيئة التواضع ، وأن لا يسيء الأدب مع شيخه بقول أو فعل أو هيئة ويراعي مع ذلك التجمل وتحسين الثياب والنظافة عند العلماء والفضلاء ، فإن جبريل عليه السلام أتى معلما للناس بحاله ومقاله، ومما يرشد إليه الطلاب أن يكون قوي النفس لا يستحي عن السؤال وطلب الحق قال أحد السلف : (لا ينال العلم مستحيي أو مستكبر) .

وأرشد الحديث إلى بعض آداب العالم مع تلاميذه، فينبغي للعالم أن يتواضع ويحلم على السائل وإن تجاوز ما يجب عليه من الاحترام والتكريم .

المسألة الثانية: قوله : «الإسلام أن تشهد...»:

حد الإسلام لغة: الانقياد والخضوع ، واصطلاحا: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، وقد فسره النبي ﷺ بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، وتنقسم الأعمال إلى عمل بدني كالصلاة والصوم ،وعمل مالي كالزكاة ،وعمل مركب منهما كالحج .فالإسلام يشمل جميع الواجبات الظاهرة ،وإنما اقتصر النبي ﷺ على ذكر الأمور الخمسة لأنها الأصول التي يبنى عليها ،ويشهد لذلك قول النبي ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » رواه مسلم. ويدخل أيضا في مسمى الإسلام ترك المحرمات.

أما الإيمان فحده لغة: التصديق.

واصطلاحا: قول اللسان واعتقاد الجنان وعمل الأركان يزيد بالطاعات وينقص بالعصيان. وقد فسره النبي ﷺ بالاعتقادات الباطنة.

ومذهب أهل السنة والجماعة في الإيمان أنه قول وعمل ، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان ، فقد حكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم .

وأنكر السلف على من أخرج الأعمال من الإيمان إنكارا شديدا . وقد دل على دخوله قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . وفي الصحيحين : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان » .

المسألة الثالثة : إذا ذكر الإسلام أو الإيمان وحده في نصوص الشرع صار معناه عاما يشمل الأعمال الظاهرة والباطنة . كما في حديث وفد عبد القيس حيث فسر النبي ﷺ الإيمان حينما ورد مفردا بمعنى الدين الشامل للظاهر والباطن . وإذا ذكر الإسلام مقرونا بالإيمان في النصوص صار لكل واحد منهما معنى خاص به ، فالإسلام بمعنى الأعمال الظاهرة والإيمان بمعنى الأعمال الباطنة ، كما في حديث جبريل وبهذا التفصيل يظهر تحقيق القول في مسالة الإسلام و الإيمان هل هما واحد أو مختلفان ، فالتحقيق أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته والإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده ، كما في حديث أنس عن

النبي ﷺ قال : « الإسلام علانية و الإيمان في القلب » أخرجه أحمد، ولهذا قال العلماء : كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن .

المسألة الرابعة : دلت النصوص على أن من كمل الإتيان بمباني الإسلام الخمس صار مسلما حقا أما من أقر بالشهادتين صار مسلما حكما ، فإذا دخل في الإسلام بذلك ألزم بشرائع الإسلام وفرائضه ، فإن امتنع عن فعل جميع الفرائض حكم بردته.

المسألة الخامسة : أركان الإيمان ستة لا يصح الإيمان إلا بها جميعا، فمن ترك ركنا منها بطل إيمانه:

الأول: الإيمان بالله وهو الاعتقاد الجازم بوجود الله وربوبيته و ألوهيته وأسمائه وصفاته ووحدانية في ذلك ، أي بأنه لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه و صفاته ، قال الله تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ .

الثاني : الإيمان بالملائكة وهو الاعتقاد الجازم بوجودهم وأن الله خلقهم من نور لعبادته وأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

ولهم وظائف كثيرة فمنهم الموكلون بحمل العرش ومنهم الموكلون بالوحي ومنهم الموكلون بالجبال ومنهم خزنة الجنة وخزنة النار ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد ومنهم الموكلون بقبض أرواح المؤمنين ومنهم الموكلون بقبض أرواح الكافرين ومنهم الموكلون بسؤال العبد في القبر ، وأفضلهم جبريل روح القدس عليه السلام وهم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله لا يأكلون و لا يشربون ولا يتناسلون وخلقتهم عظيمة لهم أجنحة متباينون في عددها وقد أعطاهم الله قوة يتمثلون ويتشكلون في غير صورهم التي خلقها الله عليها وقد حجبهم الله عنا فلا نراهم في صورهم التي خلقوا عليها ولكن كشفهم لبعض عباده كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورته له ستمائة جناح قد سد الأفق.

الثالث : الإيمان بالكتب وهو الاعتقاد الجازم بأن الله أنزل على رسله كتبا فيها أمره ونهيه ووعده ووعيده وفيها نور وهدى ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ .

أنزلها لأجل هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور وهي : القران والإنجيل والتوراة والزبور وصحف إبراهيم وموسى ، وأعظمها التوراة والإنجيل والقرآن وأعظم الثلاثة وناسخها وأفضلها القران .

الرابع : الإيمان بالرسل وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه أرسل إلى عباده رسلا مبشرين ومنذرين لهداية البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور قال تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ وقال تعالى :﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾.

ونؤمن بذلك إجمالا لا نعلم عددهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ ونؤمن بهم تفصيلا كما فصلهم الله في كتابه.

وأفضلهم الرسل ثم الأنبياء وأفضل الرسل والأنبياء أولو العزم وهم خمسة : محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين وأفضلهم نبي الإسلام وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله الهاشمي ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾.

والإيمان بواحد منهم يستلزم الإيمان بهم جميعا . والكفر بواحد منهم كفر بجميعهم لأن كل واحد منهم يدعو إلى توحيد الله وطاعته قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

الخامس : الإيمان باليوم الآخر وهو الاعتقاد الجازم بيوم القيامة والإيمان بكل ما اخبر الله به وأخبر به رسوله ﷺ مما يكون بعد الموت وحتى يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار فنؤمن بأمور الغيب بعد الموت من سكرات الموت وعالم البرزخ ونعيم القبر وعذابه وفتنته وسؤال الملكين وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

ونؤمن بيوم القيامة الكبرى الذي يحيي الله فيه الموتى ويبعث العباد من قبورهم ثم يحاسبهم ، وبالنفخ في الصور وهي ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث والنشور فيقوم الناس لرب العالمين حفاة عراة غرلا تدنو منهم الشمس ومنهم من يلجمه العرق ، وأول من يبعث وتنشق عنه الأرض هو نبينا محمد ﷺ وتنشر صحف الأعمال فيكشف المخبوء ويظهر المستور ويحصل ما في الصدور ويكلم الله عباده ليس بينه وبينهم ترجمان ويدعى الناس بأسمائهم وأسماء آبائهم.

ونؤمن بالميزان الذي له كفتان توزن به أعمال العباد وأبدانهم وتنشر الدواوين فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره ، ويردون على حوض النبي ﷺ ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وريحه أطيب من المسك وآنيته عدد نجوم السماء وطوله شهر وعرضه شهر من شرب منه لم يظمأ منه أبدا ويحرم منه من ابتدع في الدين.

ونؤمن بالصراط منصوب على متن جهنم يتجاوزه الأبرار كل على حسب عمله ويزل عنه الفجار ، ثم من نجا من أهل الجنة يحبسون على قنطرة دون الجنة يتقاص أهل الإيمان بعضهم من بعض ثم كل يرى سبيله إما

إلى جنة وإما إلى النار، والجنة والنار مخلوقتان قبل الخلق لا تفنيان أبدا ، والموت يؤتى به يوم القيامة على صورة كبش بين الجنة والنار فيذبح فيصير الخلق في خلود لا فناء بعده ، ونؤمن بشفاعة نبينا وسائر النبيين والملائكة والشهداء والصديقين والصالحين ، ويخرج الله خلقا بغير شفاعة بفضله ورحمته.

السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره وهو الاعتقاد الجازم بأن كل خير وشر بقضاء الله وقدره وأن الله تعالى فعال لما يريد فكل شيء بإرادته ولا يخرج عن مشيئته وتدبيره وعلم كل ما كان وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل وقدر المقادير للكائنات حسبما سبق به علمه واقتضت حكمته وعلم أحوال عباده وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم ، وملخصه : هو ما سبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

ومراتب القدر أربعة لا يتحقق إيمان العبد إلا بها:

الأولى : العلم وهي الإيمان بأن الله عالم بكل ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون جملة وتفصيلا وأنه علم ما الخلق عاملون قبل خلقهم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

الثانية : الكتابة وهي الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير المخلوقات في اللوح المحفوظ وهو الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء فكل ما جرى وما يجري إلى يوم القيامة مكتوب عنده في أم الكتاب قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾.

الثالثة : المشيئة وهي الإيمان بأن كل شيء يجري في هذا الكون فهو بإرادة الله ومشيئته الدائرة بين الحكمة والرحمة لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فمشيئته نافذة وقدرته شاملة ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن إرادته شيء قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

الرابعة : الخلق وهي الإيمان بأن الله خالق كل شيء لا خالق غيره ولا رب سواه وأن كل ما سواه مخلوق فهو خالق كل عامل وعمله وكل متحرك وحركته قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾، وأن كل ما يجري من خير وشر وكفر وإيمان وطاعة ومعصية شاء الله وقدره وخلقه ، وأنه يحب الإيمان والطاعة ويكره الكفر والمعصية.

والعباد لهم قدرة على أفعالهم واختيار وإرادة لما يصدر منهم من طاعة ومعصية لكن مشيئتهم وإرادتهم تابعة لمشيئة الله وإرادته خلافا للجبرية الذين يقولون إن العبد مجبر على أفعاله ليس له اختيار وللقدرية الذين يقولون إن العبد له إرادة مستقلة وأنه يخلق فعله وأن إرادته ومشيئته خارجة عن إرادة الله ومشيئته والحق ما عليه أهل السنة قال تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

المسألة السادسة: الإحسان من مراتب الدين وهو أخص من الإيمان والإسلام ، وقد أشار النبي ﷺ إلى أنه يشتمل على مقامين:

أحدهما: مقام المراقبة وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه عليه وقربه منه ، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله لأن استحضاره ذلك يمنعه من الالتفات لغير الله.

الثاني: مقام المشاهدة وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدته لله بقلبه فيتنور القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان ، وهذا هو حقيقة الإحسان ويتفاوت أهله فيه بحسب بصائرهم .

والإحسان يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم ويوجب أيضا النصح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها.

المسألة السابعة: ينبغي على العبد أن يستحضر قرب الله ومعيته في العبادة وقد ورد الندب إلى ذلك في السنة الصحيحة قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا قام يصلي فإنما يناجي ربه أو ربه بينه وبين القبلة» متفق عليه، وقال ﷺ للذين يرفعون أصواتهم بالذكر : « إنكم لا تدعون أصما ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا » وفي رواية : « وهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » متفق عليه ، وقال بكر المزني: (من مثلك يا بن آدم خلي بينك وبين المحراب والماء كلما شئت دخلت على الله ﷻ ليس بينك وبينه ترجمان) وقال مسلم بن يسار : (ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله ﷻ) وقال غزوان: (إني أصبت راحة قلبي في مجالسة من لديه حاجتي) ، وخطب عروة ابن الزبير إلى ابن عمر ابنته وهما في الطواف فلم يجبه ثم لقيه بعد ذلك فاعتذر إليه وقال: (كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا)، ومن وصل إلى هذه الحالة في عبادته استأنس بالله وفرح بلقائه وانشغل قلبه بذكره واستغنى عن غيره .

المسألة الثامنة: أخبر النبي ﷺ أنه لا يعلم وقت حدوث الساعة وهو مما استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحد ففي صحيح البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله » ثم قرأ هذه الآية : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ الآية. وقد ذكر في هذا الحديث علامتين من علامات الساعة وكلتاهما وقعت :

الأولى: " أن تلد الأمة ربتها " والمراد سيدتها ومالكتها ، وفسر ذلك بأحد معنيين:

المعنى الأول : أن يكثر جلب الرقيق حتى تجلب البنت فتعتق ثم تجلب الأم فتشتريها البنت وتستخدمها جاهلة بأنها أمها وقد وقع هذا في الإسلام ، وفيه كناية إلى انتشار الإسلام وكثرة الفتوح وجلب الرقيق.

المعنى الثاني : وقيل يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من حيث السب والضرب والاستخدام والاستهانة.

الثانية: « أن ترى الحفاة العراة العالة ..» والمراد أن أسافل الناس يصيرون رؤسائهم وتكثر أموالهم حتى يتباهوا بطول البنيان وزخرفته وفي ذلك انقلاب الموازين وفساد نظام الدين والدنيا ، فقد أخرج أحمد من حديث أنس عن النبي ﷺ قال : « بين يدي الساعة سنون خداعة يتهم فيها الأمين ويؤتمن فيها المتهم وينطق فيها الروبيضة قالوا وما الروبيضة قال السفيه ينطق في أمر العامة » .

المسألة التاسعة: في الحديث إشارة إلى كراهة ما لا تدعو الحاجة إليه من رفع البناء وتزويقه وغيره من فضول المباح في كل شيء ، ولم يكن إطالة البنيان معروفا في زمن النبي ﷺ وأصحابه بل كان بنيانهم على قدر الحاجة ، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان » ، وكلما ابتعد الناس عن هدي النبي وروح الإسلام حصل منهم توسع في المعمار ومبالغة في زخرفة المباني وبذل الأموال العظيمة في سفاسف الأمور ، ولا يؤجر العبد على شيء من ذلك كما روي في سنن ابن ماجه « كل نفقة العبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين » .

النص الثاني :

قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقال: "« مرحبا بالقوم غير خزايا ولا الندامى ». فقال: يا رسول الله إن بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في الشهر الحرام، فحدثنا بجميل من الأمر أن عملنا به دخلنا الجنة، وندعوا به من وراءنا. قال: «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغانم الخمس، وأنهاكم عن أربع: ما ينتبذ في الدباء والنقير والحنتم والمزفت». رواه مسلم من حديث قرة بن خالد وله طرق في الصحيحين عن أبي جمرة.

شرح الحديث :

إن الكتاب والسنة ليس بينهما تعارض أبداً، فليس في القرآن ما يناقض بعضه بعضاً، وليس في السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ ما يناقض بعضه بعضاً، وليس في القرآن ولا في السنة ما يناقض الواقع أبداً، لأن الواقع واقع حق، والكتاب والسنة حق، ولا يمكن التناقض في الحق، وإذا فهمت هذه القاعدة انحلت عنك إشكالات كثيرة. قال الله تعالى :﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾ فإذا كان الأمر كذلك فأحاديث النبي ﷺ لا يمكن أن تتناقض فإذا فسر النبيﷺ الإيمان بتفسير، وفسره في موضع آخر بتفسير آخر يعارض في نظرك التفسير الأول، فإنك إذا تأملت لم تجد معارضة :

ففي حديث جبريلعليه السلام قسم النبي ﷺ الدين إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول : الإسلام. القسم الثاني : الإيمان . القسم الثالث : الإحسان .

وفي حديث وفد عبد القيس لم يذكر إلا قسما واحداً وهو الإسلام . فالإسلام عند الإطلاق يدخل فيه الإيمان لأنه لا يمكن أن يقوم بشعائر الإسلام إلا من كان مؤمناً فإذا ذكر الإسلام وحده شمل الإيمان، وإذا ذكر الإيمان وحده شمل الإسلام، وإذا ذكرا جميعاً صار الإيمان يتعلق بالقلوب، والإسلام يتعلق بالجوارح، وهذه فائدة مهمة لطالب العلم فالإسلام إذا ذكر وحده دخل فيه الإيمان قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ . ومن المعلوم أن دين الإسلام عقيدة وإيمان وشرائع، وإذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، وإذا ذكرا جميعاً صار الإيمان ما يتعلق بالقلوب، والإسلام ما يتعلق بالجوارح، ولهذا قال بعض السلف: (الإسلام علانية، والإيمان سر) لأنه في القلب، ولذلك ربما تجد منافقاً يصلي ويتصدق ويصوم فهذا مسلم ظاهراً غير مؤمن كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والحديث فيه دلالة ظاهرة على مكانة العمل من الإيمان، فقد فسر الإيمان في حديث وَفْد عبد القيس بما فسر به الإسلام هنا، لكنه لم يذكر فيه الحج، وهو متفق عليه.

فقال: «آمركم بالإيمان بالله وحده، هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن ، وأن تعطوا من المغانم الخمس ». وقد روى في بعض طرقه: «الإيمان بالله، وشهادة أن لا إله إلا الله». لكن الأول أشهر.

وفي رواية أبي سعيد ﷺ : «آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا»، وقد فسر في حديث شعب الإيمان بهذا وبغيره، فقال: «الإيمان بِضْعٌ وستون أو بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعْبَة من الإيمان».

وقوله : « وأنهاكم عن أربع: ما ينتبذ في الدباء والنقير والحنتم والمزفت».

والمراد بهذه الأشياء أوعية كانوا يجعلون فيها التمر أو الزبيب مع الماء حتى يحلو ثم يشربونه وقد يتخمر. وسبب النهي سرعة تخمر ما وضع بها، وقد نسخ النهي عن الانتباذ فيها مع منع كل ما كان مسكرا.

وجاء في شرح النووي على مسلم: فالدُبَّاء بضم الدال وبالمد وهو القرع اليابس أي الوعاء منه.

وأما الحنتم فاختلف فيها فأصح الأقوال وأقواها أنها جرار خضر وهذا التفسير ثابت في كتاب الأشربة من صحيح مسلم.

وأما النقير: وفي رواية « المقير » فالنقير فبالنون المفتوحة والقاف، وأما المقير فبفتح القاف والياء أنها جرار يؤتى بها من مصر مقيرات الأجواف وروى ذلك عن أنس بن مالك ﷺ ونحوه عن ابن أبي ليلى وزاد أنها حمر.

والمختار أن العلماء فرقوا بين النقير والمقير فذهبوا إلى أن النقير جذع ينقر وسطه.

وأما المقير فهو المزفت وهو المطلي بالقار وهو الزفت وقيل الزفت نوع من القار ، فقد صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: المزفت هو المقير.

وأما معنى النهى عن هذه الأربع فهو أنه نهى عن الانتباذ فيها وهو أن يجعل في الماء حبات من تمر أو زبيب أو نحوهما ليحلو ويشرب، وإنما خصت هذه بالنهى لأنه يسرع إليه الإسكار فيها فيصير حراما نجسا وتبطل ماليته فنهي عنه لما فيه من إتلاف المال، ولأنه ربما شربه بعد إسكاره من لم يطلع عليه.

ثم إن هذا النهى كان في أول الأمر ثم نسخ بحديث بريدة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « كنت نهيتكم عن الانتباذ إلا في الأسقية فانتبذوا في كل وعاء ولا تشربوا مسكرا» رواه مسلم في الصحيح.

النص الثالث :

حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « الإيمان بضعٌ وستون شُعْبة، والحياء شُعْبة من الإيمان» رواه البخاري.

وعند مسلم: « الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضعٌ وستون شُعْبة، فأفضلُها قولُ: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعْبة من الإيمان».

شرح الحديث :

حقيقة تشعب الإيمان معلومة من نصوص الكتاب والسنة، ودلالتها متنوعة، فمنها ما دل عليها صراحة هذا الحديث العظيم في بيان الركائز التي يقوم عليها معتقد التشعب في الإيمان؛ فقد اشتمل على بيان المقومات التي تفسر حقيقة التشعب ، حيث أبرز تنوع الشعب من حيث اشتمالها على الاعتقاد والعمل.

ومن حيث تنوع هذه الشعب في تحقيقها للإيمان فمنها ما يكون بالعمل ومنها ما يكون بالقلب ، يقول الإمام ابن منده: (فجعل الإيمان شعبا : بعضها باللسان ، والشفتين ، وبعضها بالقلب ، وبعضها بسائر الجوارح) .

قوله : « فأفضلُها قولُ: لا إله إلا الله » وهذه الكلمة هي كلمة التوحيد، وأعلى خصال الإيمان، بها عُلو الإيمان وأهله؛ ولهذا حينما يقَاتلُ الكفارَ لتكونَ كلمة الله هي العُليا ، ولذا لا يكون مقاتلاً لأجْل أن تكونَ كلمة الله هي العليا؛ حتى يُخْلِص في قوله لهذه الكلمة.

فالمراد بقول: لا إله إلا الله ؛ أي: القول باللسان ، المواطئ للقلب ، المقتضي للعمل ، والناس حيال هذه الكلمة متفاوتون : فمنهم مَن ينطق بها وهو زنديقٌ؛ كالمنافقين في عهْد النبي ﷺ . ومنهم مَن ينطق بها وهو صِدِّيقٌ، وهذا هو الذي جاءت الأخبار بالثناء على قائلها بأن يكون صادقًا ومُخلصًا في قوله بها. ومنهم مَن ينطق بها وهو بَيْنَ بَيْنَ؛ أي: يقولها قولاً، لكنَّها لا تحجزه عن المعاصي، ولا تحمله على الصبر والرضا والشكر، ومقامات الإيمان العُليا؛ لأنَّ الكلمة وإنْ قالها بلسانه – وهي عُليا وفُضْلى – لكنَّه لم يعلو قلبُه بها، فلم تزكُ نفسُه، ولم يزكُ عملُه ، ولهذا؛ كلَّما عَلَتْ هذه الكلمة في القلب، عظمتْ مَحارم الله في نفسه .

ومنها وما هو مشروع مستحب كإماطة الأذى عن الطريق فعبر عنه بقوله : « فأدناها »وفي هذا يبيِّن عَظَمة هذا الدِّين، وهذه الشريعة كيف جعلتْ إزالة الأذى عن الطريق مِن شُعَب الإيمان التي مَن فرَّط فيها، فقد نقصَ إيمانُه؛ لأنه لم يستكمل الشُّعَب، وهذا يبيِّن أن مَن استكمل الشُّعَب، استكمل الإيمان؛ لحيازته لأعلى الشُّعَب إلى أنْ وصَلَ إلى أدناها..

ومنها ما هو واجب كالحياء فاقتصر على بيان مكانته من كونها واحد من شعب الإيمان، بقوله: « والحياء شعبة من الإيمان » . وهو خُلق جميل يبعثُ على ترْك رذائلِ الأخلاق والأعمال، فتنكسر النفْس على الإقدام عليها؛ لأنَّ فيها دناءَةً تنافي الحياء، وهذا هو الحياء الشرعي الممدوح صاحبُه ، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – أنَّ النبي ﷺ مرَّ على رجلٍ وهو يُعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنَّك لتستحيي، حتى كأنَّه يقول: قد أضرَّ بك، فقال رسول الله ﷺ : « دعْهُ فإنَّ الحياء من الإيمان» ولكن لا يدخل في مُسمَّى الحياء الشرعي الاستحياء في طَلَبِ العلم بعدم السؤال والمشاركة بالبحث فيه، وكذا الاستحياء من الناس بعدم إنكار مُنكرٍ؛ فإن هذا ضَعف وخَوَر، وجُبن عن تحصيل الخير.

وهذا الحديث عمدة في بيان تلازم شعب الإيمان من حيث ارتباط الظاهر بالباطن: فالنطق بالشهادة عمل ظاهر تضمن شعبا باطنة من كمال التصديق والإخلاص، وتضمن شعبا ظاهره من كمال التطبيق والالتزام بالشريعة، والحياء شعبة باطنة ، وإماطة الأذى عن الطريق شعبة ظاهرة.

النص الرابع :

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٣ – ١٧٤].

شرح الآيات :

سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ وأصحابه لما سمعوا أن أبا سفيان قد جمع الجموع لقتالهم زادهم إيماناً وتصديقاً، وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، أي أن الله كافينا نعم المولى ونعم النصير.

فالحق عند أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، والزيادة تحصل بالعمل الصالح ، والنقص بتركه، وقد استدل لزيادة بالأدلة الشرعية ومنها هذه الآية الكريمة .

وزيادة الإيمان تلحق ذات التصديق كما تلحق جانب العمل، وزيادة التصديق تعني أمرين:

زيادة في آحاد المصدَّق به، فتصير زيادة في التصديق من جهة الكم.

وزيادة تلحق ذات التصديق كيفا، وتعني تأكده ووثوقه وقوته ، فإن هذا مما لا يستوي فيه المؤمنون ، حتى مع استوائهم في عدم الشك أو الظن المناقض لأصل التصديق.

ومحل الزيادة هنا بزيادة العمل الباطن من التصديق بأمر الرسول والتوكل التام على الله تعالى، لما أمر النبي ﷺ المجتبى الصحابة الكرام ﷺ بالذهاب معه لمواجهة المشركين بعد ان أنهكتهم الحرب واجهدهم مالقوه من قتال المشركين ، فكان ما أورثه اليقين بوعد الله والتوكل عليه زيادة في إيمانهم ظهر في الانقياد التام لأمر الله ورسوله ﷺ ، فكان لهم من ذلك نصيب من رحمة الله حيث كف الناس عنهم كما هو معلوم .

روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]).

أما قوله تعالى: ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٤] قال ابن كثير – رحمه الله –: (لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم لم يمسسهم سوء ما أضمر لهم عدوهم).

وقال المفسرون: أعطاهم الله من الجزاء أربعة معان: النعمة، والفضل، وصرف السوء، واتِّباع رضوان الله، فرضي عنهم ورضوا عنه.

يقول العلماء إن معنى : ﴿ حسبنا الله ﴾ : أي الله كافينا ، فالحسب هو الكافي أو الكفاية، والمسلم يؤمن بأن الله عز وجل بقدرته وعظمته وجلاله يكفي العبد من كل ما أهمه وأصابه ، ويرد عنه بعظيم حوله كل خطر يخافه ، وكل عدو يسعى في النيل منه.

وأما معنى : ﴿ نعم الوكيل ﴾أي : أمدح من هو قيِّم على أمورنا ، وقائم على مصالحنا ، وكفيل بنا، وهو الله ﷻ ، فهو أفضل وكيل ؛ لأن من توكل على الله كفاه ، ومن التجأ إليه سبحانه بصدق لم يخب ظنه ولا رجاؤه ، وهو عز وجل أعظم من يستحق الثناء والحمد والشكر لذلك .

ويقول الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – : (﴿ حَسْبُنَا ﴾ أي : كافينا في مهماتنا وملماتنا، ﴿ وَنِعْمَ الْوَكِيل ﴾ إنه نعم الكافي جل وعلا ، فإنه نعم المولى ونعم النصير ، ولكنه إنما يكون ناصرا لمن انتصر به واستنصر به ، فإنه ﷻ أكرم الأكرمين وأجود الأجودين ، فإذا اتجه الإنسان إليه في أموره أعانه وساعده وتولاه ، ولكن البلاء من بني آدم ، حيث يكون الإعراض كثيرا في الإنسان ، ويعتمد على الأمور المادية دون الأمور المعنوية) .

وقوله : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ من أعظم الأدعية فضلا ؛ وأعلاها مرتبة ، وأصدقها لهجة ؛ لأنه يتضمن حقيقة التوكل على الله عز وجل ، ومَن صَدَق في لجوئه إلى ربه سبحانه حقق له الكفاية المطلقة، الكفاية من شر الأعداء ، والكفاية من هموم الدنيا ونكدها ، والكفاية في كل موقف يقول العبد فيه هذه الكلمة يكتب الله ﷻ له بسببها ما يريده ، ويكتب له الكفاية من الحاجة إلى الناس ، فهي اعتراف بالفقر إلى الله ، وإعلان الاستغناء عما في أيدي الناس .

ومع ذلك ، فننبه إلى أنه لم يرد في حديث خاص أن من قالها كان له من الأجر كذا وكذا ، لكن قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق:٣] ؛ دليل على أن من توكل على الله حق التوكل ، وعده الله سبحانه أن يكفيه ما أهمه ، ويكون حسيبه وحفيظه ، فلا يحتاج إلى شيء بعده ، وكفى بذلك فضلا وثوابا ؛ فإن من كفاه الله سَعِدَ في الدنيا والآخرة بقدرة الله وعزته وحكمته ، ولذلك قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٤٩] .

ويناسب هذا الدعاء كل موقف يصيب المسلم فيه هم أو فزع أو خوف ، وكذلك كل ظرف شدة أو كرب أو مصيبة ، فيكون لسان حاله ومقاله الالتجاء إلى الله ، والاكتفاء بحمايته وجنابه العظيم عن الخلق أجمعين .

وقد ورد في ذلك حديث أَبِي سَعِيدٍ الخدري ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ » ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ لَهُمْ : « قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا» .[1]

فنلاحظ مما سبق أن هذا الدعاء يمكن أن يقال في مواجهة المسلم الظالم ، وليس فقط الكافر ، كما يمكن أن يلجأ إليه المهموم أو المكروب أو الخائف بسبب تعدي أحد المسلمين .

وأما الظالم الذي قيل في حقه هذا الدعاء فليس له إلا التوبة الصادقة ، وطلب العفو ممن ظلمهم وانتهك حقوقهم ، ورد المظالم إلى أهلها ؛ وإلا فإن الله عز وجل سيكون خصمه يوم القيامة ، وغالبا ما يعجل له العقوبة في الدنيا، فإن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

ومن فوائد الآيات الكريمات:

١- أن المؤمن إذا كان في كرب وشدة فتوكل على الله وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، فإن الله يكفيه ما أهمه ويصرف عنه كيد عدوه .

٢- أن الله تعالى قذف في قلوب المشركين الرعب، حين سمعوا أن النبيﷺ وأصحابه خرجوا لملاحقتهم، فانهزموا وعادوا خائبين.

والرعب من أقوى أسباب النصر، قال ﷺ "نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ". وقد اختلف أهل العلم هل هو خاص بالرسول ﷺ أو يشمل ما يحصل لأعداء أتباعه إلى يوم القيامة، قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله – :وإذا كان الرعب يُلقى في قلوب الذين كفروا لإشراكهم، قال تعالى:﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥١]. فإن الأمن يُلقى في قلوب الذين آمنوا لتوحيدهم، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وكلما كان الإنسان أشد إيماناً وتوحيداً كان أشد أمناً واستقراراً، وهذا شيء مجرب لأن من كان أشد إيماناً وتوحيداً كان أقوى توكلاً.

ومن أقوى أسباب الأمن ومصابرة الأعداء التوكل على الله ﷻ .

[1] رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن، وقد روي من غير وجه هذا الحديث عن عطية، عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ نحوه. وصححه الألباني في " صحيح الترمذي "، وفي " السلسلة الصحيحة " ولذلك بوب النسائي على هذا الدعاء بقوله : " مَا يَقُول إذا خَافَ قوما " انتهى من " عمل اليوم والليلة " ، وذكره ابن القيم - رحمه الله - في " الفصل التاسع عشر في الذكر عند لقاء العدو ومن يخاف سلطاناً وغيره " انتهى من " الوابل الصيب "

النص الخامس :

حديث ابن عباس قال : قال النبي ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن...» ، *رواه البخاري* .

شرح الحديث :

اختلف العلماء في توجيه النصوص التي ورد فيها نفي الإيمان عمن فعل محرما أو ترك واجبا كقوله ﷺ في الصحيحين: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»

قال النووي – رحمه الله – في شرح هذا الحديث: (فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله... كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة.

وإنما تأولناه على هذا المعنى لحديث أبي ذر وغيره من قال: « لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق » مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أهل الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصو الإيمان، إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرين على الكبيرة كانوا في المشيئة، إن شاء الله عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولاً، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة).

ويقول ابن رجب : (المراد بنفي الإيمان نفي بلوغ حقيقته ونهايته فإن الإيمان كثيرًا ما ينفي لانتفاء بعض أركانه وواجباته كقوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » وقوله : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه ») .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله – في عقيدته الواسطية: (ونقول هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الإيمان).

أما من قال هو مسلم من السلف فليس مراده تكفيره وإنما أخذ بظاهر النصوص التي تنفي عنه وصف الإيمان فمخالفتهم يسيرة في الاسم لا يترتب عليها حكم.

ومذهب أهل السنة وسط في هذه المسألة بين المعتزلة والخوارج الذين يسلبون عنه الاسم فيكفرونه والمرجئة الذين يثبتون له الاسم المطلق ويقولون هو مؤمن كامل الإيمان...

القسم الثاني

النصوص المتعلقة بالقدر

وفي هذا القسم ثلاثة نصوص :

النص الأول :

حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة فقال النبي ﷺ : فحج آدم موسى فحج آدم موسى » الحديث رواه البخاري في كتاب القدر، باب محاجة آدم لموسى عند الله واللفظ للإمام مسلم.

شرح الحديث :

قوله ﷺ : « احتج آدم وموسى » قال أبو الحسن القابسي : التقت أرواحهما في السماء، فوقع الحجاج بينهما.

قال القاضي عياض: ويحتمل أنه على ظاهره، وأنهما اجتمعا بأشخاصهما ، وقد ثبت في حديث الإسراء أن النبي ﷺ اجتمع بالأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في السماوات، وفي بيت المقدس ، وصلى بهم . قال : فلا يبعد أن الله تعالى أحياهم كما جاء في الشهداء .

قال: ويحتمل أن ذلك جرى في حياة موسى ؛ سأل الله تعالى أن يريه آدم فحاجه .

قوله ﷺ : « فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا ، وأخرجتنا من الجنة ».

وفي رواية: « أنت آدم الذي أغويت الناس ، وأخرجتهم من الجنة ».

وفي رواية :«أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض ».

معنى «خيبتنا»: أوقعتنا في الخيبة، وهي الحرمان والخسران، ومعناه: كنت سبب خيبتنا وإغوائنا بالخطيئة التي ترتب عليها إخراجك من الجنة، ثم تعرّضْنا نحن لإغواء الشياطين.

والغي الانهماك في الشر.

وفيه جواز إطلاق الشيء على سببه .

وفيه ذكر الجنة وهي موجودة من قبل آدم . هذا مذهب أهل الحق .

قوله: « اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده »: ويجب الإيمان بصفة اليد من غير التعرض لكيفيتها أو لتأويلها.

ومعنى «اصطفاك»: أي اختصك وآثرك بذلك .

قوله : « أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ »: المراد بالتقدير هنا الكتابة في اللوح المحفوظ ، وفي صحف التوراة وألواحها، أي كتبه عليّ قبل خلقي بأربعين سنة.

وقد صرح بهذا في الرواية التي بعد هذه ، فقال : بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين سنة . قال : أتلومني على أن عملت عملا كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟.

فهذه الرواية مصرحة ببيان المراد بالتقدير ، ولا يجوز أن يراد به حقيقة القدر ، فإن علم الله تعالى وما قدره على عباده وأراد من خلقه أزلي لا أول له، ولم يزل سبحانه مريدا لما أراده من خلقه من طاعة ومعصية ، وخير وشر .

قوله ﷺ : « فحجّ آدمُ موسى »: هكذا الرواية في جميع كتب الحديث باتفاق الناقلين والرواة والشراح وأهل الغريب: « فحجّ آدمُ موسى » برفع آدم ، وهو فاعل ، أي: غَلَبَه بالحجة ، وظهر عليه بها .

ومعنى كلام آدم عليه السلام : أنك يا موسى تعلم أن هذا كُتب عليّ قبل أن أُخلق ، وقُدِّر عليّ، فلا بد من وقوعه ، ولو حرصت أنا والخلائق أجمعون على رد مثقال ذرة منه لم نقدر ، فلِمَ تلومني على ذلك ؟.

ولأن اللوم على الذنب شرعي لا عقلي ، وإذ تاب الله تعالى على آدم ، وغفر له ، زال عنه اللوم فمن لامه كان محجوجا بالشرع .

فإن قيل : فالعاصي منا لو قال : هذه المعصية قدّرها الله عليّ لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك ، وإن كان صادقا فيما قاله .

فالجواب: أن هذا العاصي باق في دار التكليف ، جارٍ عليه أحكام المكلفين من العقوبة واللوم والتوبيخ وغيرها، وفي لومه وعقوبته زجر له ولغيره عن مثل هذا الفعل ، وهو محتاج إلى زجر ما لم يمت فأما آدم فميت خارج عن دار التكليف وعن الحاجة إلى الزجر، فلم يكن في القول المذكور له فائدة ، بل فيه إيذاء وتخجيل . والله أعلم وهذا ما قرره الإمام النووي في شرح مسلم.

النص الثاني :

حديث علي ﷺ قال كنا جلوسا مع النبي ﷺ ومعه عود ينكت في الأرض وقال : « ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة » فقال رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: « لا اعملوا فكل ميسر » ثم قرأ : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ الآية رواه البخاري.

شرح الحديث :

قوله: (كنّا جلوساً): وفي رواية: (كنّا قعوداً)، وزاد في رواية: (كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة)

قوله: (ومعه عود ينكت به في الأرض): في رواية: (وبيده عود، فجعل ينكت به...)

قوله : (فنكّس): بتشديد الكاف، أي أطرق .

قوله: (ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة، فقال رجل من القوم): وفي رواية: (فقالوا يا رسول الله)، وهذا الرجل وقع في حديث جابر عند مسلم أنه سراقة بن مالك بن جعشم.

قوله: (أفلا نتكل يا رسول الله): الفاء معقبة لشيء محذوف تقديره: فإذا كان كذلك أفلا نتكل.

وزاد في رواية: (أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل): أي نعتمد على ما قُدِّر علينا؟ (قال: لا): أي لا تتكلوا.

وحاصل السؤال: ألا نترك مشقة العمل فإنا سنصير إلى ما قُدِّر علينا.

والجواب: لا مشقة؛ لأن كلَّ أحدٍ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، وهو يسير على ما يسّره الله.

وقال الطيبي : الجواب من الأسلوب الحكيم: مَنَعَهم عن ترك العمل وأَمَرَهم بالتزام ما يجب على العبد من العبودية وزَجَرَهم عن التصرف في الأمور المغيبة فلا يجعلوا العبادة وتركها سبباً مستقلاً لدخول الجنة والنار؛ بل هي علامات فقط .

فعمل الإنسان مكتوب ، ولكن لو سئلت هل تعلم ما كتب لك من العمل؟ لا تدري ماذا يكون لك في الغد، بدليل قوله تعالى : ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ﴾ [سورة لقمان: ٣٤] .فإذا كنت لا تدري فإنه يبطل احتجاجك بالقدر.

ولهذا أبطل الله حجة الذين يحتجون على شركهم بالقدر، فقال سبحانه : ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ﴾ [سورة

الأنعام: ١٤٨] ووجه إبطال هذه الحجة قوله تعالى: ﴿ حتى ذاقوا بأسنا﴾ . ولو كان لهم حجة في ذلك ما أذاقهم الله بأسه.

فإذا كنت لا تدري ماذا كتب لك فلا احتجاج لك بالقدر، ولهذا فأنت لا تدري ماذا كتب لك من الرزق، ولهذا تسعى في طلب الرزق، والعمل كالرزق مقدور لك ولكن يجب عليك أن تسعى للعمل كما تسعى للرزق وتقوم بطاعة الله.

وكذلك فلا احتجاج لأحد بالقدر على معصية الله، فمن الناس من إذا أمرته بالطاعة أجابك بكلمة حق أريد بها باطل، فيقول: نسأل الله أن يهدينا. ولا شك أن الإنسان ينبغي أن يسأل الله الهداية لكن هذا أراد بقوله دفع اللوم عن نفسه ولو كان صادقاً في طلب الهداية لجد في الهداية وعمل لها.

فكما أنك لن ترزق الولد بمجرد التمني بل لابد أن تأخذ بأسبابه فتتزوج فإنك لكي تنال الهداية لابد أن تتجه إلى ربك، وإذا اتجهت إليه سبحانه فثق أن ما يؤتيك الله سبحانه أكثر من عملك. وفي الحديث القدسي: « من عادى لي ولياً فقد آذانته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذاني لأعيذنه » .. فانظر ما يؤتيك الله سبحانه وتعالى إذا تقربت إليه بأن يحفظ لك جوارحك يسدّدك ويسددك في جميع أعمالك، وإذا سألته أعطاك، وإذا استعذت به أعاذك.

وثبت كذلك عن رسول الله ﷺ أنه أخبر عن ربه أن من تقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً ، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة. فأقبل على ربك تجد أكثر بكثير من عملك، أما أن تعرض وتقول: أسأل الله أن يهديني. فهذا أشبه ما يكون بالاستهزاء بالله سبحانه.

ولهذا فنقول لمن يزعم أنه يترك العمل ويتكل على ما كتب، نقول له: اعمل فقد جاءتك الرسل ونزلت الكتب وبين الخير ورغب فيه، وبين الشر وحذر منه، وأوتيت عقلاً فما عليك إلا أن تقوم بما يقتضيه هذا العقل من اتباع ما جاءت به الرسل . ولهذا قال الرسول ﷺ : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم تلا قول الله ﷻ : ﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى .وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى﴾[سورة الليل: ٥-١٠].

وهؤلاء الذين يحتجون بالقدر لو ضربهم أحد أو أخذ مالهم ثم احتج عليهم بأن هذا قضاء وقدر فلن يقبلوا.

ولهذا فالاحتجاج بالقدر إبطال للشرع، لأن كل من يقترف إثماً من زنى، أو قتل، أو شرب خمر، وغيره سيقول : هذا قضاء وقدر فتفسد الأرض ويفسد الشرع.

وقد ذكر أن عمر بن الخطاب ﷺ أتي بسارق فأمر بقطع يده، فقال السارق: مهلاً يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت إلا بقضاء الله وقدره، فقال عمرﷺ: (ونحن نقطع يدك بقضاء الله وقدره). فاحتج عليه عمر بما احتج به هو على عمله السيء.

وهنا في قصة احتجاج آدم وموسى عليهما السلام: فقال أهل العلم: (إن موسى لم يلم آدم على ما وقع منه من المعصية والأكل من الشجرة وإنما ذكر المصيبة وهي الإخراج من الجنة. وموسى أعلم وأفقه وآدب من أن يلوم أباه على ذنب قد تاب منه، وقال الله ﷻ فيه: ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ [سورة طه: ١٢١- ١٢٢]).

وإنما كان العتب من جهة الإخراج من الجنة وهي مصيبة ويجوز للإنسان أن يحتج بالقدر على المصيبة لأنها ليست من فعله بل من تقدير الله ونظير ذلك رجل سافر فأصيب في سفره بحادث فجئت تلومه على سفره فلا يتوجه هذا اللوم لأنه لم يسافر من أجل الحادث وسيقول لك: هذا بقضاء الله وقدره. ويقبل منه هذا..

وهكذا آدم فهو لم يأكل من الشجرة من أجل أن يخرج من الجنة، ولكن الشيطان وسوس له وقاسمه وغره فنسي ما عهد الله إليه ألا يقرب هذه الشجرة فحصلت المصيبة وأخرج من الجنة. . فاحتجاج آدم بالقدر على المصيبة، وهذا جائز لا بأس به.

وكذلك يورد البعض هنا ما ورد في الأثر أن النبي ﷺ ، جاء إلى علي وفاطمة رضي الله عنهما وهما نائمان لم يقوما لصلاة الليل، فكأنه لامهما، فقال علي: (يا رسول الله، إن أنفسنا بيد الله – يعني كنا نائمين–) ، فخرج رسول الله ﷺ ، وهو يضرب على فخذه ويقول: ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾.

فقال المحتجون بالقدر: إن رسول الله ﷺ ، لم ينكر على علي ﷺ احتجاجه بالقدر.

وأجاب أهل العلم على ذلك ومنهم ابن القيم رحمه الله بأنهما لما يحتجا على الاستمرار في المعصية وإنما على أمر قد فرغ وانتهى، وفرق بين شخص يحتج بالقدر على أمر قد مضى وهو نادم عليه ويعزم ألا يعود إليه، وبين شخص يحتج بالقدر ليبرر استمراره على المعصية فالأول يقبل، والثاني لا يقبل.

وهذا وجه جيد أن الإنسان إذا أصاب معصية وندم واحتج بالقدر بعد ندمه وتوبته فلا بأس بذلك ولا حرج، وليس كذلك من يحتج بالقدر ليبرر خطأه ويستمر عليه، فهذا لا يقبل أبداً..

وإن قال قائل: ما الجمع بين إبطال الله احتجاج المشركين على شركهم بمشيئته، وما أثبته الله من أن شركهم وقع بمشيئته، فقد قال سبحانه: ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ [سورة الأنعام : ١٠٧] مع ما سبق من قوله تعالى: ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٨].

فالجمع أنهم يحتجون بالمشيئة لدفع اللوم والعتاب ويقولون: إن تعذيب الله لهم ظلم بزعمهم أنه قدره عليهم ثم يعاقبهم عليه. أما الآية الأخرى فهي تسلية لرسول الله ﷺ ، وإعلام أن لله تعالى حكمة في وقوع الشرك من بني آدم ولو شاء سبحانه لجعل الناس أمة واحدة على الحق لكن ليبلو بعض الناس ببعض.

قال الخطابي – رحمه الله – (لما أخبر ﷺ عن سبق الكائنات رام من تمسك بالقدر ان يتخذه حجة في ترك العمل فأعلمهم ان هنا امرين لا يبطل أحدهما بالآخر باطن وهو العلة الموجبة في حكم الربوبية وظاهر وهو العلامة اللازمة في حق العبودية وانما هي أمارة مخيلة في مطالعة علم العواقب غير مفيدة حقيقة فبين لهم ان كلا ميسر لما خلق له وان عمله في العاجل دليل على مصيره في الاجل ولذلك مثل بالآيات ونظير ذلك الرزق مع الأمر بالكسب والاجل مع الإذن في المعالجة).

وقال في موضع آخر : (هذا الحديث إذا تأملته وجدت فيه الشفاء مما يتخالج في الضمير من أمر القدر وذلك ان القائل أفلا نتكل وندع العمل لم يدع شيئا مما يدخل في أبواب المطالبات والاسئلة الا وقد طالب به وسأل عنه فأعلمه رسول الله ﷺ ان القياس في هذا الباب متروك والمطالبة ساقطة وانه لا يشبه الأمور التي عقلت معانيها وجرت معاملة البشر فيما بينهم عليها بل طوى الله علم الغيب عن خلقه وحجبهم عن دركه كما اخفى عنهم أمر الساعة فلا يعلم أحد متى حين قيامها).

وقال ابن السمعاني في أول كتاب القدر نحو ذلك وقال غيره وجه الانفصال عن شبهة القدرية ان الله أمرنا بالعمل فوجب علينا الامتثال وغيّب عنا المقادير لقيام الحجة ونصب الأعمال علامة على ما سبق في مشيئته فمن عدل عنه ضل وتاه لأن القدر سر من أسرار الله لا يطلع عليه الا هو فإذا ادخل أهل الجنة الجنة كشف لهم عنه حينئذ وفي أحاديث هذا الباب أن افعال العباد وان صدرت عنهم لكنها قد سبق علم الله بوقوعها بتقديره ففيها بطلان قول القدرية صريحا كذلك في الحديث جواز القعود عند القبور والتحدث عندها بالعلم والموعظة والله اعلم .

النص الثالث :

حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يوما ، فقال : « يا غلام، إني أُعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سأَلت فاسأَل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأُمة لو اجتمعت على أَن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وفي رواية الإمام أحمد : « احفظ الله تجده أَمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أَن ما أَخطأَك لم يكن ليصيبك ، وما أَصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أَن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسرِ يسرا » وصححه الألباني في صحيح الجامع.

شرح الحديث :

هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين ، حتى قال بعض العلماء : (تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش) .

وقيل: (إذا أردت أن توصي صاحبك أو أخاك أو أبنك فقل له: أحفظ الله يحفظك).

قوله ﷺ : « أحفظ الله يحفظك » أي : أحفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه.

وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال وعند نواهيه بالاجتناب وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه إلي ما نهي عنه وحّذر منه ؛ فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله في كتابه ، وقال تعالي: ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ؛ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ ففسر الحفيظ في الآية بالحافظ لأوامر الله.

ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله الصلاة ، وقد أمر الله بالمحافظة عليها فقال: ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾ ، ومدح المحافظين عليها بقوله :﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ .

وكذلك الطهارة فإنها مفتاح الصلاة ، قال النبي ﷺ: «وَلاَ يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِن » صحيح الجامع.

ومما يُؤمّر بحفظه الأيمان ، قال ﷻ :﴿ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ ﴾ والأيمان: هو ما سبق اللسان من غير قصد كقول الإنسان: لا والله ، وبلى والله . فإن الأيمان يقع الناس فيها كثيراً ويُهمل كثيرٌ منهم ما يجب حفظه فلا يحفظه ولا يلتزمه .

ومن الأشياء المأمورين بحفظها: الرأس والبطن كما في الحديث الذي حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة أنه ﷺ قال : « فليحفظ الرأس وما وعي وليحفظ البطن وما حوى» وحفظ الرأس وما وعي يدخل فيه

حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات قال تعالي : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار علي ما حرم الله ، ويتضمن أيضا حفظ البطن من إدخال الحرام إليها من المآكل والمشارب .

ومن أعظم ما يجب حفظه اللسان والفرج ؛ فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنه ﷺ قال :« من حفظ ما بين لحييه ورجليه دخل الجنة » صحيح الجامع . وغيرها.

وقوله ﷺ : « يحفظك »: أي من حفظ حدوده وراعى حقوقه: حفظه الله فإن الجزاء من جنس العمل، وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان :

الأول : حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله؛ قال عمر بن عبد العزيز: (ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه)، وقال ابن المنكدر: (إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدّويّرات التي حوله فما يزالون في حفظ من الله وستر). ومتى كان العبد مشتغلا بطاعة الله فإن الله يحفظه في تلك الحال ؛ كم قيل: من اتقى الله فقد حفظ نفسه ، ومن ضيّع تقواه فقد ضيّع نفسه والله غني عنه) وقال بعضهم: (إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق خادمي ودآبتي).

الثاني من الحفظ وهو أشرفها: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه ؛ فيحفظه في حياته من الشبهات المضّلة ومن الشهوات المحّرمة ، ويحفظه عند موته فيتوفاه علي الأيمان .

وقوله ﷺ « أحفظ الله تجده تجاهك » معناه: أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه: وجد الله معه في كل أحواله حيث يتوجه يحوطه وينصره ويّوفقه ويُسدّده، ﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، قال قتادة:(من يتقي الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل)؛ بل كتب بعض السلف إلى أخ له فقال :(أما بعد ، فإن كان الله معك فمن تخاف ؟؟ وإن كان عليك فمن ترجو ؟) .

قوله ﷺ : « إذا سألت: فأسأل الله ، وإذا استعنت: فأستعن بالله »: هذا مُقتبسٌ من قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فإن السؤال هو دعاؤه والرغبة إليه ، والدعاء هو العبادة كما في الحديث الصحيح عن النعمان بن بشير رضي الله عنه في صحيح الجامع .فتضمن هذا الكلام أن يُسأل الله ﷻ وحده ولا يُسأل غيره، وأن يُستعان بالله دون غيره .

وقال ﷺ :« من لم يسأل الله يغضب عليه» صحيح الجامع ، وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديث كثيرة صحيحة ، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه علي أن لا يسألوا الناس شيئاً ومنهم : أبو بكر وأبو ذر وثوبان رضي الله عنهم أجمعين ، وكان أحدهم يسقط السوط منه وهو على ناقته فلا يسأل أحد أن يناوله إياه .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ : « فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ﷻ فَقَالَ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ »

واعلم أن سؤال الله ﷻ دون خلقه هو المتعيّن ، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعتراف بقدرة المسئول علي رفع هذا الضر ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار ، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده العزيز الغفار لأنه حقيقة العبادة ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يدعو ويقول: (اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك ؛ ولا يقدر علي كشف الضر وجلب النفع سواك).

فاعلم أن الله سبحانه يُحب أن يُسأل ، والمخلوق يكره أن يُسأل ، ولهذا قال وهب بن مُنبه لرجل كان يأتي الملوك:(ويحك تأتي من يُغلق عنك بابه ويُظهر لك فقره ويُواري عنك غناه ، وتدع من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار، ويُظهر لك غناه، ويقول ادعني أستجب لك ؟؟)

وقال طاووس لعطاء : (إياك أن تطلب حوائجك إلي من أغلق دونك بابه ويجعل دونها حجابه ، وعليك بمن بابه مفتوح إلي يوم القيامة أمرك أن تسأله ، ووعدك أن يُجيبك).

وأما الاستعانة بالله ﷻ دون غيره من الخلق ، فلأن العبد عاجز عن جلب مصالحه ودفع مضاره ، ولا مُعين له علي مصالح دينه ودنياه إلا الله ﷻ ، فمن أعانه فهو المعان ومن خذله فهو المخذول ، وهذا تحقيق قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإن المعني لا تحوّل للعبد من حال إلي حال ولا قوة له علي ذلك إلا بالله ، وهذه الكلمة هي كنز من كنوز الجنة ، فالعبد مُحتاج إلي الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات والصبر علي المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة ، ولا يقدر علي الإعانة علي ذلك إلا الله ﷻ ، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه .قال بعض السلف : (يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك ، وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك) .

قوله ﷺ : « وأعلم أن الأمة لو اجتمعت علي أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا علي أن يضروك بشيء ؛ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » المراد : إنما يُصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه فكله مُقدّر عليه ، ولا يُصيب العبد إلا ما كُتب له من مقادير ذلك في الكتاب السابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعا. وقد قال تعالى :﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا ﴾ وقال : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ وقوله: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ .

قوله ﷺ « رُفعت الأقلام وجفت الصحف »: هو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد ، فإن مقادير الخلائق قد كُتبت قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما في صحيح مسلم .

واعلم أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل وما ذُكر قبله وبعده فهو مُتفرع عليه وراجع إليه ، فإن العبد إذا علم أنه لن يُصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر وأن اجتهاد الخلق كلهم علي خلاف المقدور غير مُفيد البتة علم حينئذٍ أن الله وحده هو الضآر النافع المعطي المانع ، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده ، فإن المعبود إنما يُقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ، ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ولا يُغني عن عابده شيئاً فمن يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يُعطي ولا يمنع غير الله أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء وتقديم طاعته علي طاعة الخلق جميعاً ، وأن يتقي سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً ، وأن يُفرده وحده بالاستعانة به والسؤال له وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء.

۞۞۞

القسم الثالث

النصوص المتعلقة باليوم الآخر

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : اثبات الساعة بعلامتها.

المبحث الثاني : مواقف يوم القيامة.

المبحث الأول : إثبات الساعة بعلامتها :

وفيه خمسة نصوص :

النص الأول :قال الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف:١٨٧].

شرح الآية :

يَقُول تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُونَك عَنْ السَّاعَة ﴾ : كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلك النَّاس عَنْ السَّاعَة﴾، عُنِيَ العلماء بجمع أسماء يوم القيامة وعددوها ، منهم الغزالي ، والقرطبي وغيرهما، فبلغت خمسين اسماً، وسُمِّي يوم القيامة بالساعة ، والساعة جزء من الزمان غير محدود ، والمتعارف عليه أن الساعة جزء من أربعة وعشرين ساعة في اليوم والليلة .

والساعة بإضافة الألف واللام تعني: الوقت الذي نحن فيه، والمعروف بـ(الآن) ، وقيل سميت بذلك: لقربها ، وقيل: لأنها تأتي بغتة في ساعة .

قِيلَ : نَزَلَتْ هذه اللآية فِي قُرَيْش، وَقِيلَ : فِي نَفَر مِنْ الْيَهُود وَالْأَوَّل أَشْبَه لِأَنَّ الْآيَة مَكِّيَّة، وَكَانُوا يَسْأَلُونَ عَنْ وَقْت السَّاعَة اِسْتِبْعَادًا لِوُقُوعِهَا وَتَكْذِيبًا بِوُجُودِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْد إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْتَعْجِل بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَة لَفِي ضَلَال بَعِيد ﴾.

وَقَوْله : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾: قَالَ اِبْن عَبَّاس رضي الله عنهما: مُنْتَهَاهَا، أَيْ مَتَى مَحَطّهَا وَأَيَّانَ آخِر مُدَّة الدُّنْيَا الَّذِي هُوَ أَوَّل وَقْت السَّاعَة.

قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمهَا عِنْد رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾: أَمَرَ تَعَالَى رَسُوله ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنْ وَقْت السَّاعَة أَنْ يَرُدّ عِلْمهَا إِلَى اللَّه تَعَالَى فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا، أَيْ يَعْلَم جَلِيَّة أَمْرهَا وَمَتَى يَكُون عَلَى التَّحْدِيد لَا يَعْلَم ذَلِكَ إِلَّا هُوَ تَعَالَى؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض ﴾: قَالَ قَتَادَة: أي ثَقُلَ عِلْمهَا عَلَى أَهْل السَّمَاوَات وَالْأَرْض أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وقَالَ الْحَسَن : إِذَا جَاءَتْ ثَقُلَتْ عَلَى أَهْل السَّمَاوَات وَالْأَرْض يَقُول كَبُرَتْ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ اِبْن عَبَّاس رضي الله عنهما: لَيْسَ شَيْء مِنْ الْخَلْق إِلَّا يُصِيبهُ مِنْ ضَرَر يَوْم الْقِيَامَة.

قَوْله: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَة ﴾: فَإِنَّهُ يَقُول: لَا تَجِيء السَّاعَة إِلَّا فَجْأَة، لَا تَشْعُرُونَ بِمَجِيئِهَا، وقيل: أي تَأْتِيهِمْ عَلَى غَفْلَة .

قوله: ﴿ يَسْأَلُونَك كَأَنَّك حَفِيّ عَنْهَا ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يَقُول كَأَنَّك عَالِم بِهَا، لَسْت تَعْلَمهَا.

قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمهَا عِنْد اللَّه ﴾: وَقَالَ مَعْمَر عَنْ بَعْضهمْ: ﴿ كَأَنَّك حَفِيّ عَنْهَا ﴾ كَأَنَّك عَالِم بِهَا. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿ كَأَنَّك حَفِيّ عَنْهَا ﴾: كَأَنَّك بِهَا عَالِم، وَقَدْ أَخْفَى اللَّه عِلْمهَا عَلَى خَلْقه وَقَرَأَ ﴿ إِنَّ اللَّه عِنْده عِلْم السَّاعَة ﴾ الْآيَة .

وَهَذَا الْقَوْل الراجح ولهذا قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمهَا عِنْد رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ فَإِنَّهُ أَمْر مِنْ اللَّه نَبِيّه مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يُجِيب سَائِلِيهِ عَنْ السَّاعَة بِأَنَّهُ لَا يَعْلَم وَقْت قِيَامهَا إِلَّا اللَّه الَّذِي يَعْلَم الْغَيْب ، وَأَنَّهُ لَا

يُظْهِرهَا لِوَقْتِهَا وَلَا يَعْلَمهَا غَيْره جَلَّ ذِكْره وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ جِبْرِيل عليه السلام فِي صُورَة أَعْرَابِيّ لِيُعَلِّم النَّاس أَمْر دِينهمْ فَجَلَسَ مِنْ رَسُول اللَّه ﷺ مَجْلِس السَّائِل الْمُسْتَرْشِد وَسَأَلَهُ ﷺ عَنْ الْإِسْلَام ثُمَّ عَنْ الْإِيمَان . ثُمَّ عَنْ الْإِحْسَان . ثُمَّ قَالَ فَمَتَى السَّاعَة ؟ قَالَ لَهُ رَسُول اللَّه ﷺ « مَا الْمَسْئُول عَنْهَا بِأَعْلَم مِنْ السَّائِل » أَيْ لَسْت أَعْلَم بِهَا مِنْك وَلَا أَحَد أَعْلَم بِهَا مِنْ أَحَد ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيّ ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّه عِنْده عِلْم السَّاعَة ﴾ الْآيَة .

النص الثاني:

روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال: اطّلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: « ما تذكرون ؟ » ، قالوا : نذكر الساعة، قال: « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر: الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم ».

وفي رواية : « نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر » .

وفي رواية في العاشرة : « وريح تلقي الناس في البحر » .

شرح الحديث :

قول الصحابة ﷺ : (نذكر الساعة) أي : أمر القيامة واحتمال قيامها في كل ساعة.

قوله : « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات » أي : علامات.

قوله: (فذكر) أي : النبي ﷺ بيانا للعشر:

١- « **الدخان** »: هو الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾، قال حذيفة ﷺ: هو على حقيقته ؛ لأنه ﷺ سئل عنه فقال: « يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوما وليلة ، والمؤمن يصير كالزكام ، والكافر كالسكران » ، فقوله : يصير كالزكام أي : كصاحب ، أو مصدر بمعنى المفعول أي : كالمزكوم.

٢- « **الدجال** »: فقد ذكر فيه عدة أحاديث في السنة النبوية تبين حاله، منها:

عن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ : « ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور وإن بين عينيه مكتوب كافر» .

وعن عمران بن حصين ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خَلْقٌ أَكْبَرُ من الدجال » .

وكذلك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر النبي ﷺ يوما بين ظهري الناس المسيح الدجال فقال: « إن الله ليس بأعور، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ، وَأَرَانِي الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدَمُ كأحسن ما يرى من أُدْمِ الرجال تضرب لِمَّتُه بين منكبيه رَجِلُ الشعر يقطر رأسه ماء واضعا يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا المسيح

ابن مريم ثم رأيت رجلا وراءه جَعْدًا قَطِطًا أعور العين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قَطَنٍ واضعا يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت : من هذا قالوا المسيح الدجال » .

وعن النواس بن سمعان ﷺ قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظننناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: « ما شأنكم » قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظننناه في طائفة النخل فقال « غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم: فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم: فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خَلَّةً بين الشأم والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالا، يا عباد الله فاثبتوا» قلنا: يا رسول الله: وما لبثه في الأرض؟ قال: « أربعون يوما: يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم » قلنا: يا رسول الله: فذلك اليوم الذي كسنة: أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: « لا، اقدروا له قدره » قلنا : يا رسول الله: وما إِسْرَاعُهُ في الأرض؟ قال: « كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فَتُنْبِتُ فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضروعا وأَمَدَّهُ خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيرُدُّون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخَرِبَةِ فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كَيَعَاسِيبِ النحل، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جَزْلَتَيْنِ رمية الغرض، ثم يدعوه فيُقْبِل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ».

و عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « لأنا أعلم بما مع الدجال منه: معه نهران يجريان أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجج، فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ فليأت النهر الذي يراه نارا وليغمض ثم ليطأطئ رأسه فيشرب منه فإنه ماء بارد، وإن الدجال ممسوح العين عليها ظَفَرَةٌ غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب » .

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « يتبع الدجال من يهود أَصْبَهَانَ سبعون ألفا، عليهم الطَّيَالِسَةُ ».

وعنه أيضا ﷺ عن النبي ﷺ قال: « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس له من نِقَابِهَا نَقْبٌ إلا عليه الملائكة صافّين يحرسونها، ثم تَرْجُفُ المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق » .

وعن أم شريك رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول: « لَيَفِرَّنَّ الناس من الدجال في الجبال » قالت أم شَرِيك : يا رسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال : « هم قليل».

وعن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال أكثر مما سألت: قال: « وما يُنْصِبُكَ منه؟ إنه لا يضرك » قال قلت: يا رسول الله إنهم يقولون إن معه الطعام والأنهار ! قال : « هو أهون على الله من ذلك ».

٣- « **الدابة** » : وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ .

٤- « **طلوع الشمس من مغربها** » : وهي العلامة المشهورة.

٥- « **نزول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام** » أي : المنضمّ إلى ظهوره المهدي الأعظم ، فهو من باب الاكتفاء .

وقد روى الطبراني عن أوس مرفوعا: « ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ».

وروى الترمذي عن مجمع بن جارية مرفوعا : « يقتل ابن مريم الدجال بباب لد » : وفي النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: هو موضع بالشام ، وقيل بفلسطين ، كذا في شرح الترمذي للسيوطي.

وفي القاموس : لد بالضم قرية بفلسطين ، يقتل عيسى عليه السلام الدجال عند بابها .

٦- « **يأجوج ومأجوج** » : بألف فيهما ويهمز، قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦.٩٧].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ « يقول: الله عز وجل يوم القيامة يا آدم ! يقول: لبيك ربنا وسعديك، فَيُنَادَى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف أُرَاهُ قال تسع مائة وتسعة وتسعين؛ فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، فشقّ ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، فقال النبي ﷺ: من يأجوج ومأجوج قَالَ تِسْعَ مائة وَتِسْعَةً وتسعين ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا رُبُعَ أهل الجنة، فكبّرنا، ثم قال: ثُلُثَ أهل الجنة، فكبّرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبّرنا » .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « أول من يُدعى يوم القيامة: آدم، فتراءى ذريته فيقال : هذا أبوكم آدم . فيقول: لبيك وسعديك ، فيقول: أخرج بعث جهنم من ذريتك ، فيقول : يا رب كم أخرج ؟ فيقول: أخرج

من كل مائة تسعة وتسعين » فقالوا : يا رسول الله إذا أخذ منا من كل مائة تسعة وتسعون فماذا يبقى منا ؟ قال : « إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود».

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب: فُتِح اليوم من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه، وحلق بإصبعه الإبهامِ والتي تليها» قالت زينب بنت جحش: فقلت يا رسول الله أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال:« نعم، إذا كثر الخَبَثُ ».

وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: « إن يأجوج ومأجوج لَيَحْفِرُونَ السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس: قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا، فيعودون إليه كَأَشَدِّ ما كان، حتى إذا بلغت مدتُهم وأراد الله عز وجل أن يبعثهم إلى الناس: حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله، ويستثني، فيعودون إليه وهو كَهَيْئَتِهِ حين تركوه: فيحفرونه ويخرجون على الناس فَيُنَشِّفُونَ المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نَغَفا فِيَ قْفَائِهِمْ فيقتلُهم بها، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن شكرا من لحومهم ودمائهم » .

وفي حديث النوّاس بن سمعان ﷺ مرفوعا : « ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عبادا لي لا يَدَانِ لأحد بقتالهم فَحَرِّزْ عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طَبَرِيَّةَ فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخَمَرِ وهو جبل بيت المقدس فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء فيرمون بِنُشَّابِهم إلى السماء فيرُدُّ الله عليهم نُشَّابهم مخضوبة دما، ويُحْصَر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيَرْغَبُ نبي الله عيسى وأصحابه: فيرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم فيصبحون فَرْسَى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهم ونتنهم: فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا لا يُكِنُّ منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفَةِ، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك ورُدِّي بركتك: فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بِقِحْفِهَا، ويبارك في الرِّسْل حتى أن اللِّقْحَة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللِّقْحَة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللِّقْحَة من الغنم لتكفي الفَخِذَ من الناس، فبينما هم كذلك: إذ بعث الله

ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة » .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: « لَيُحَجَّنَّ البيت ولَيُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج ».

٧-٨-٩ « **ثلاثة خسوف** »: وقد قيل أن الخسف وُجِد في مواضع ، لكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف الثلاثة قدرا زائدا على ما وجد ، كأن يكون أعظم مكانا وقدرا.

« خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب » : بالرفع في الثلاثة على تقدير أحدها أو منها ..

١٠ - « وآخر ذلك **نار تخرج من اليمن** » أي : آخر ما ذكر من الآيات: نار تخرج من اليمن ، وفي رواية : « تخرج من أرض الحجاز » .

قال القاضي عياض : لعلها ناران تجتمعان تحشران الناس ، أو يكون ابتداء خروجها من اليمن ، وظهورها من الحجاز ، ذكره القرطبي .

ثم الجمع بينه وبين ما في البخاري : أن أول أشراط الساعة نار تخرج من المشرق إلى المغرب ، بأن آخريتها باعتبار ما ذكر من الآيات ، وأوليتها باعتبار أنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمر الدنيا أصلا ، بل يقع بانتهائها النفخ في الصور ، بخلاف ما ذكر معها ، فإنه يبقى مع كل آية منها أشياء من أمور الدنيا ، كذا ذكره بعض المحققين من العلماء الموفقين .

« تطرد » أي : تسوق تلك النار « الناس إلى محشرهم » : بفتح الشين ويكسر أي: إلى مجمعهم ، وموقفهم .

قيل : المراد من المحشر أرض الشام ، إذ صح في الخبر : إن الحشر يكون في أرض الشام ، لكن الظاهر أن المراد أن يكون مبتدؤه منها ، أو تجعل واسعة تسع خلق العالم فيها .

وفي رواية أي : لمسلم أو غيره « نار تخرج من قعر عدن » أي : أقصى أرضها.

« تسوق »أي : تطرد النار « الناس إلى المحشر » .

وفي رواية في العاشرة أي : في بيانها وبدلا عما ذكر فيها من النار: « **ريح تلقي الناس في البحر** »، ولعل الجمع بينهما أن المراد بالناس الكفار ، وأن نارهم تكون منضمة إلى ريح شديدة الجري ، سريعة التأثير في إلقائها إياهم في البحر ، وهو موضع حشر الكفار ، أو مستقر الفجار ، كما ورد : إن البحر يصير نارا ،

ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ بخلاف نار المؤمنين ، فإنها لمجرد التخويف بمنزلة السوط مهابة ؛ لتحصيل السوق إلى المحشر والموقف الأعظم ، والله تعالى أعلم .

۞۞۞

النص الثالث :

حديث أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ قَالَ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ قَالَ : فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ قَالَ : فَيُقَالُ لَهُ : انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنْ النَّارِ قَدْ

أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنْ الْجَنَّةِ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ : فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا » قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له في قبره ثم رجع إلى حديث أنس قال : « وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال : لا دريت ولا تليت ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين ». رواه مسلم .

شرح الحديث :

دلت السنة المطهرة على سؤال الملائكة للميت فور دخوله القبر وفراغ الناس منه، فحين يحيي الله الميت حتى يسمع قرع نعال من كان ماشياً في جنازته ، يأتي إليه ملكان فيقعدانه ويقولان له :ما ربك؟ وما دينك؟ وما نبيك ؟ فأما المؤمن فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ﷺ ، فيقولان له : نم نومة العروس ، قد علمنا أن كنت لموقناً.

وأما الكافر والمنافق ، فيقول : لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيئاً فقلت مثل ما يقولون ، فيضربانه بمطارق من نار، فيصيح صيحة يسمعه من في الأرض غير الثقلين ، ويقولان له : لا دريت ولا تليت .

ولكن تسمية الملكين الذين ورد ذكرهما في الحديث بـ(منكر ونكير): لم تثبت في جميع الروايات ، وإنما وردت في بعضها ، فقد روى الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا قُبِرَ الميت: أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر ، والآخر: النكير، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟، فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يُفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ثم يُنوّر له فيه، ثم يقال له : نم، فيقول : ارجعُ إلى أهلي فأخبرهم؟، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقا قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثله، لا أدري، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه فتختلف فيها أضلاعه، فلا يزال فيها مُعذَّبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ».

وهذا يدل على أن الفتنة مما يعم حكمها على كل المكلفين بعد موتهم ، ومع ذلك فقد وردت الأحاديث في استثناء بعض أولئك المكلفين من أهل الإيمان ، ذكر منهم المرابط في سبيل الله تعالى والشهيد ومن يموت يوم الجمعة:

فمما ورد في استثناء المرابط من فتنة القبر حديث رسول الله ﷺ حيث قال : « كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله ، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر » .

أما الشهيد فقد روى النسائي في سننه أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قال : يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » .

وأما من يموت يوم الجمعة: فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر»

وقد وردت أدلة متعددة في بيان ما يلقاه المكلف في القبر من النعيم إن كان من أهل الإيمان ومن العذاب والشقاء إن كان من أهل الضلال والكفر.

كذلك من صور الجزاء في القبر تشكل العمل بحسبه، فإن كان صالحا فعلى صورة رجل حسن وإن شرا على صورة رجل قبيح ، مصاحبا المقبور إلى يوم القيامة، عن البراء بن عازب رضي الله عنه في حديث طويل منه في وصف حال المؤمن بعد سؤال الملكين: « ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرّك، هذا يومك الذي تُوعد، فيقول له من أنت؟، فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح ...، إلى أن يصف حال الكافر بعد سؤال الملكين له ، فيقول: ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت تُوعد، فيقول: من أنت؟، فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول : أنا عملك الخبيث » .

النص الرابع :

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس: ٧٧ – ٨٣]

شرح الآية :

قَالَ مُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَعُرْوَة بْن الزُّبَيْر وَالسُّدِّيّ وَقَتَادَة جَاءَ أُبَيّ بْن خَلَف – وقال بعض المفسرون أنه الْعَاص بْن وَائِل – إِلَى رَسُول اللَّه ﷺ وَفِي يَده عَظْم رَمِيم وَهُوَ يَفُتّهُ وَيَذْرُوهُ فِي الْهَوَاء وَهُوَ يَقُول يَا مُحَمَّد أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّه يَبْعَث هَذَا ؟ قَالَ ﷺ « نَعَمْ يُمِيتك اللَّه تَعَالَى ثُمَّ يَبْعَثك ثُمَّ يَحْشُرك إِلَى النَّار » وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَات مِنْ آخِر يس ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَة ﴾ إِلَى آخِرهنّ.

وَعَلَى كُلّ تَقْدِير سَوَاء كَانَتْ هَذِهِ الْآيَات قَدْ نَزَلَتْ فِي أُبَيّ بْن خَلَف أَوْ الْعَاص بْن وَائِل أَوْ فِيهِمَا فَهِيَ عَامَّة فِي كُلّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْث.

وَالْأَلِف وَاللَّام فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَان ﴾ لِلْجِنْسِ يَعُمّ كُلّ مُنْكِر لِلْبَعْثِ.

قوله: ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَة فَإِذَا هُوَ خَصِيم مُبِين ﴾: أَيْ أَوَلَمْ يَسْتَدِلّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْث بِالْبَدْءِ عَلَى الْإِعَادَة فَإِنَّ اللَّه اِبْتَدَأَ خَلْق الْإِنْسَان مِنْ سُلَالَة مِنْ مَاء مَهِين فَخَلَقَهُ مِنْ شَيْء حَقِير ضَعِيف مَهِين كَمَا قَالَ ﷻ ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُمْ مِنْ مَاء مَهِين فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَار مَكِين إِلَى قَدَر مَعْلُوم ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَان مِنْ

نُطْفَة أَمْشَاج ﴾ أَيْ مِنْ نُطْفَة مِنْ أَخْلَاط مُتَفَرِّقَة فَالَّذِي خَلَقَهُ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَة الضَّعِيفَة أَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى إِعَادَته بَعْد مَوْته.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقه قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَام وَهِيَ رَمِيم ﴾: أَيْ اِسْتَبْعَدَ إِعَادَة اللَّه تَعَالَى ذِي الْقُدْرَة الْعَظِيمَة الَّتِي خَلَقَتْ السَّمَوَات وَالْأَرْض لِلْأَجْسَادِ وَالْعِظَام الرَّمِيمَة وَنَسِيَ نَفْسه وَأَنَّ اللَّه تَعَالَى خَلَقَهُ مِنْ الْعَدَم إِلَى الْوُجُود فَعَلِمَ مِنْ نَفْسه مَا هُوَ أَعْظَم مِمَّا اِسْتَبْعَدَهُ وَأَنْكَرَهُ وَجَحَدَهُ.

وَلِهَذَا قَالَ ﷻ ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّل مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق عَلِيم ﴾: أَيْ يَعْلَم الْعِظَام فِي سَائِر أَقْطَار الْأَرْض وَأَرْجَائِهَا أَيْنَ ذَهَبَتْ وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ وَتَمَزَّقَتْ .

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَر الْأَخْضَر نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾: أَيْ الَّذِي بَدَأَ خَلْق هَذَا الشَّجَر مِنْ مَاء حَتَّى صَارَ خَضِرًا نَضِرًا ذَا ثَمَر وَيَنْع ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى أَنْ صَارَ حَطَبًا يَابِسًا تُوقَد بِهِ النَّار؛ كَذَلِكَ هُوَ فَعَّال لِمَا يَشَاء قَادِر عَلَى مَا يُرِيد لَا يَمْنَعهُ شَيْء، قَالَ قَتَادَة: أي الَّذِي أَخْرَجَ هَذِهِ النَّار مِنْ هَذَا الشَّجَر قَادِر عَلَى أَنْ يَبْعَثهُ.

وَقِيلَ الْمُرَاد بِذَلِكَ شَجَر الْمَرْخ وَالْعَفَار يَنْبُت فِي أَرْض الْحِجَاز فَيَأْتِي مَنْ أَرَادَ قَدْح نَار وَلَيْسَ مَعَهُ زِنَاد فَيَأْخُذ مِنْهُ عُودَيْنِ أَخْضَرَيْنِ وَيَقْدَح أَحدهمَا بِالْآخَرِ فَتَتَوَلَّد النَّار مِنْ بَيْنهمَا كَالزِّنَادِ سَوَاء.

وَرُوِيَ هَذَا عَنْ اِبْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا .

وأما قوله تبارك وتعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ :يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَته الْعَظِيمَة فِي خَلْق السَّمَوَات السَّبْع بِمَا فِيهَا مِنْ الْكَوَاكِب السَّيَّارَة وَالثَّوَابِت وَالْأَرَضِينَ السَّبْع وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَال وَرِمَال وَبِحَار وَقِفَار وَمَا بَيْن ذَلِكَ وَمُرْشِدًا إِلَى الِاسْتِدْلَال عَلَى إِعَادَة الْأَجْسَاد بِخَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاء الْعَظِيمَة كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَات وَالْأَرْض أَكْبَر مِنْ خَلْق النَّاس﴾ وَقَالَ ﷻ هَهُنَا ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَات وَالْأَرْض بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُق مِثْلهمْ ﴾ أَيْ مِثْل الْبَشَر فَيُعِيدهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ قَالَهُ اِبْن جَرِير وَهَذِهِ الْآيَة الْكَرِيمَة كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّه الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَات وَالْأَرْض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلّ شَيْء قدير ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾:أَيْ إِنَّمَا يَأْمُر بِالشَّيْءِ أَمْرًا وَاحِدًا لَا يَحْتَاج إِلَى تَكْرَار وَتَأْكِيد، إِذَا مَا أَرَادَ اللَّه أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُول لَهُ: (كُنْ)، فَيَكُون وَروى الْإِمَام أَحْمَد عَنْ أَبِي ذَرّ ﷺ قَالَ إِنَّ رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّه تَعَالَى يَقُول: يَا عِبَادِي كُلّكُمْ مُذْنِب إِلَّا مَنْ عَافَيْت فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِر لَكُمْ، وَكُلّكُمْ فَقِير إِلَّا مَنْ أَغْنَيْت إِنِّي جَوَاد مَاجِد وَاجِد أَفْعَل مَا أَشَاء، عَطَائِي كَلَام، وَعَذَابِي كَلَام، إِذَا أَرَدْت شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُول لَهُ: كُنْ، فَيَكُون »

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَسُبْحَان الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوت كُلّ شَيْء وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾: أَيْ تَنْزِيه وَتَقْدِيس وَتَبْرِئَة مِنْ السُّوء لِلْحَيِّ الْقَيُّوم الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيد السَّمَوَات وَالْأَرْض وَإِلَيْهِ رَجَعَ الْأَمْر كُلّه وَلَهُ الْخَلْق وَالْأَمْر وَإِلَيْهِ يَرْجِع الْعِبَاد يَوْم الْمَعَاد فَيُجَازِي كُلّ عَامِل بِعَمَلِهِ وَهُوَ الْعَادِل الْمُنْعِم الْمُتَفَضِّل.

وَمَعْنَى قَوْلهَ تَعَالَى: ﴿ فَسُبْحَان الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوت كُلّ شَيْء ﴾: كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوت كُلّ شَيْء﴾ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْك ﴾، فَالْمُلْك وَالْمَلَكُوت وَاحِد فِي الْمَعْنَى كَرَحْمَةٍ وَرَحَمُوت وَرَهْبَة وَرَهَبُوت وَجَبْر وَجَبَرُوت.

النص الخامس :

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [سورة الحج : ٧]

شرح الآية :

البعث في **اللغة** : يأتي بمعنى الإرسال أو الإثارة أو الإحياء. جاء في لسان العرب: البعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما الإرسال، كقوله تعالى: ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾؛ معناه أرسلنا. والبعث: إثارة بارك أو قاعد، تقول: بعثت البعير فانبعث أي أثرته فثار. والبعث أيضا: الإحياء من الله للموتى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ ؛ أي أحييناكم. وبعث الموتى: نشرهم ليوم البعث.

والبعث **اصطلاحا**: لا يختلف عن المعنى الثاني، فهو إحياء الله تعالى الموتى من قبورهم كما كانوا في الدنيا ليلقى كل واحد منهم جزاءه الذي قدر له من نعيم أو عذاب.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

قوله:﴿ وَأَنَّ السَّاعَة آتِيَة لَا رَيْب فِيهَا ﴾ أَيْ كَائِنَة لَا شَكّ فِيهَا وَلَا مِرْيَة.

وقوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّه يَبْعَث مَنْ فِي الْقُبُور ﴾: أَيْ يُعِيدهُمْ بَعْدَمَا صَارُوا فِي قُبُورهمْ رِمَمًا وَيُوجِدهُمْ بَعْد الْعَدَم كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقه قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَام وَهِيَ رَمِيم * قُلْ يُحْيِهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّل مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق عَلِيم * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَر الْأَخْضَر نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ وَالْآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة، وروى الْإِمَام أَحْمَد وأبو داود وابن ماجه عن أَبِي رَزِين الْعُقَيْلِيّ ﷺ وَاسْمه لَقِيط بْن عَامِر أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُول اللَّه أَكُلّنَا يَرَى رَبّه ﷻ يَوْم الْقِيَامَة؟، وَمَا آيَة ذَلِكَ فِي خَلْقه ؟ فَقَالَ رَسُول اللَّه ﷺ : « أَلَيْسَ كُلّكُمْ يَنْظُر إِلَى الْقَمَر مُخْلِيًا بِهِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَاَللَّه أَعْظَم، قَالَ: قُلْت يَا رَسُول اللَّه: كَيْف يُحْيِي اللَّه الْمَوْتَى؟ وَمَا آيَة ذَلِكَ فِي خَلْقه؟، قَالَ: أَمَا مَرَرْت بِوَادِي أَهْلك مَحْلًا؟، قَالَ: بَلَى، قَالَ: ثُمَّ مَرَرْت بِهِ يَهْتَزّ خَضِرًا، قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّه الْمَوْتَى وَذَلِكَ آيَته فِي خَلْقه » .

ورَوَاهُ الْإِمَام أَحْمَد أَيْضًا بلفظ: « قالَ أبو رزين العقيلي ﷺ : أَتَيْت رَسُول اللَّه ﷺ فَقُلْت: يَا رَسُول اللَّ:هـ كَيْف يُحْيِي اللَّه الْمَوْتَى؟، قَالَ: مْرَرْت بِأَرْضٍ مِنْ أَرْض قَوْمك مُجْدِبَة ثُمَّ مَرَرْت بِهَا مُخْصِبَة؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: كَذَلِكَ النُّشُور».

وروى اِبْن أَبِي حَاتِم عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل ﷺ قَالَ : (مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّه هُوَ الْحَقّ الْمُبِين وَأَنَّ السَّاعَة آتِيَة لَا رَيْب فِيهَا وَأَنَّ اللَّه يَبْعَث مَنْ فِي الْقُبُور: دَخَلَ الْجَنَّة).

۞۞۞

الأمر الثاني : مواقف يوم القيامة :

وفيه سبعة نصوص :

النص الأول :

روي عن النبي ﷺ أنه قال: « لكل نبي دعوة مستجابة، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا » رواه مسلم.

شرح الحديث :

الدعاء إلى الشيء: الحث على فعله، ودعوت فلانا: سألته، ودعوته استغثته ، ويطلق أيضا : على رفعة القدْر كقوله تعالى : ﴿ ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ ، والإدعاء : كقوله تعالى: ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا ﴾

ويطلق الدعاء أيضاً: على التسمية كقوله تعالى : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ﴾.

الدعاء والنداء واحد ، وجاء الدعاء في القرآن على وجوه منها :

العبادة: قال تعالى: ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾، ومنها: الاستغاثة: قال تعالى: ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾، ومنها: السؤال: قال تعالى: ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾، ومنها: القول: قال تعالى: ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾، ومنها: النداء: قال تعالى: ﴿ يوم يدعوكم ﴾، ومنها: الثناء: ﴿ قال تعالى: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾.

إن ملازمة الدعاء والاستكثار منه أرجح من الترك، وذلك لكثرة الأدلة الواردة في الحث عليه: وهو قوله تعالى : ﴿ فادعوه مخلصين له الدين ﴾ ، إذ الدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له، وما شُرعت العبادات إلا للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه ، ولهذا ختم سبحانه وتعالى الآية : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾: حيث عبّر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار ، ووضع عبادتي موضع دعائي وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصغار والهوان ..

وفائدة الدعاء : تحصيل الثواب بامتثال الأمر ، ولاحتمال أن يكون المدعو به موقوفا على الدعاء لأن الله خالق الأسباب ومسبباتها و ينبغي أن يكون داعيا بلسانه راضيا بقلبه .

وقد استشكل ظاهر الحديث بما وقع لكثير من الأنبياء من الدعوات المجابة ولا سيما نبينا ﷺ ، وظاهره أن لكل نبي دعوة مستجابة فقط !

والجواب :أن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها ، وما عدا ذلك من دعواتهم فهو على رجاء الإجابة .

وقيل : معنى قوله : « لكل نبي دعوة » أي أفضل دعواته ، ولهم دعوات أخرى.

وقيل: لكل منهم دعوة عامة مستجابة في أمته إما بإهلاكهم وإما بنجاتهم ، وأما الدعوات الخاصة فمنها ما يستجاب ومنها ما لا يستجاب.

وقيل : لكل منهم دعوة تخصه لدنياه أو لنفسه، وكل نبي دعا على أمته بالهلاك إلا سيدنا محمد ﷺ فلم يدع فأعطي الشفاعة عوضا عن ذلك للصبر على أذاهم ، والمراد بالأمة أمة الدعوة لا أمة الإجابة. وتعقبه الطيبي بأنه ﷺ دعا على أحياء من العرب ودعا على أناس من قريش بأسمائهم ودعا على رعل وذكوان ودعا على مضر، قال: والأولى أن يقال إن الله جعل لكل نبي دعوة تستجاب في حق أمته فنالها كل منهم في الدنيا ، وأما نبينا فإنه لما دعا على بعض أمته نزل عليه ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم ﴾ فبقي تلك الدعوة المستجابة مدخرة للآخرة ، وغالب من دعا عليهم لم يرد إهلاكهم وإنما أراد ردعهم ليتوبوا.

وفِي هَذَا الْحَدِيثِ : بَيَانُ كَمَالِ شَفَقَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ ، وَاعْتِنَائِهِ بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمُ الْمُهِمَّةِ ، فَأَخَّرَ ﷺ دَعْوَتَهُ لِأُمَّتِهِ إِلَى أَهَمِّ أَوْقَاتِ حَاجَاتِهِمْ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ : « فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا »: فَفِيهِ : دَلَالَةٌ لِمَذْهَبِ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ غَيْرَ مُشْرِكٍ بِاللَّهِ تَعَالَى لَمْ يُخَلَّدْ فِي النَّارِ وَإِنْ كَانَ مُصِرًّا عَلَى الْكَبَائِرِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ دَلَائِلُهُ وَبَيَانُهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ .

وَقَوْلُهُ ﷺ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى »: هُوَ عَلَى جِهَةِ التَّبَرُّكِ وَالِامْتِثَالِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ .

النص الثاني :

قال الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧]

شرح الآية :

قَوْله: ﴿ وَنَضَع الْمَوَازِين الْقِسْط لِيَوْمِ الْقِيَامَة فَلَا تُظْلَم نَفْس شَيْئًا ﴾: أَيْ وَنَضَع الْمَوَازِين الْعَدْل لِيَوْمِ الْقِيَامَة.

وأكثر العلماء عَلَى أَنَّهُ هُوَ مِيزَان وَاحِد وَإِنَّمَا جُمِعَ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّد الْأَعْمَال الْمَوْزُونَة فِيهِ.

قَوْله: ﴿ فَلَا تُظْلَم نَفْس شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَال حَبَّة مِنْ خَرْدَل أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾: كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَظْلِم رَبّك أَحَدًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّه لَا يَظْلِم مِثْقَال ذَرَّة وَإِنْ تَكُ حَسَنَة يُضَاعِفهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْه أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وَقَالَ لُقْمَان: ﴿ يَا بُنَيّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَال حَبَّة مِنْ خَرْدَل فَتَكُنْ فِي صَخْرَة أَوْ فِي السَّمَوَات أَوْ فِي الْأَرْض يَأْتِ بِهَا اللَّه إِنَّ اللَّه لَطِيف خَبِير ﴾ .

أما عن حقيقة الميزان ؛ فقد وردت أقوال عدة في بيان ماهيته ، فالراجح عند السلف أنه ميزان حقيقي حسي توزن به الأعمال.

والبعض من أهل العلم فسّره بالعدل، وقال : هو كناية عن إرادته ، وقد عزا القرطبي هذا القول إلى مجاهد والضحاك والأعمش.

والصحيح ما عليه الجمهور ، كما أشار إلى ذلك القرطبي، وقد استدل ابن تيمية على أنه ميزان حقيقي حسّي بالأخبار التي وردت في وزنه الأعمال ، يقول: (الميزان هو ما يوزن به الأعمال، وهو غير العدل كما دل على ذلك الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ ، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ وقوله: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ أن رَسُول اللَّه ﷺ قال: « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَان، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَان، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَن: سُبْحَان اللَّه وَبِحَمْدِهِ سُبْحَان اللَّه الْعَظِيم » .

وَقَالَ روى الْإِمَام أَحْمَد والترمذي وقال: (حسن غريب) وابن ماجه عن عَبْد اللَّه بْن عَمْرو بْن الْعَاص رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: « إِنَّ اللَّه ﷻ يَسْتَخْلِص رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوس الْخَلَائِق يَوْم الْقِيَامَة فَيَنْشُر عَلَيْهِ تِسْعَة وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلّ سِجِلّ مَدّ الْبَصَر ثُمَّ يَقُول: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟، أَظْلَمَتْك كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟، قَالَ: لَا يَا رَبّ، قَالَ: أَفَلَك عُذْر أَوْ حَسَنَة؟، قَالَ: فَبُهِتَ الرَّجُل فَيَقُول: لَا يَا رَبّ، فَيَقُول: بَلَى إِنَّ لَك عِنْدنَا حَسَنَة وَاحِدَة، لَا ظُلْم عَلَيْك الْيَوْم، فَتَخْرُج لَهُ بِطَاقَة فِيهَا أَشْهَد أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللَّه وَأَشْهَد أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول اللَّه، فَيَقُول أَحْضِرُوهُ، فَيَقُول: يَا رَبّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَة مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّات؟، فَيَقُول: إِنَّك لَا تُظْلَم، قَالَ فَتُوضَع السِّجِلَّات فِي كِفَّة وَالْبِطَاقَة فِي كِفَّة، قَالَ: فَطَاشَتْ السِّجِلَّات وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَة، قَالَ: وَلَا يَثْقُل شَيْء مَعَ بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَن الرَّحِيم ».

وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين؛ تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس، فهو ما به تبين العدل، والمقصود بالوزن العدل، كموازين الدنيا .

وأما كيفية وزن الأعمال فمما لا علم لنا بحقيقته ، يقول شيخ الإسلام : (أما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب) .

وهذا البيان منه رحمه الله كافٍ في الإجابة على اعتراض من اعترض باستحالة وزن الأعراض، إلى غير ذلك كما عرف عن القرطبي في كتابه " التذكرة " .

النص الثالث :

روى البخاري بسنده عن سهل بن سعد الأنصاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «إني فرطكم على الحوض من مر علي يشرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم » .

شرح الحديث :

تتجلى رحمة الله تعالى يوم القيامة حين تدنو الشمس من الرؤوس، ويتمكن العطش من الناس، ويشتد الكرب بهم حتى يطلبوا بدء الحساب، تتجلى رحمة الله يومئذ بالمؤمنين، إذ لم يتركهم عطشى يعانون الظمأ، بل أكرمهم بحياض يشربون منها، وجعل لكل نبي من الأنبياء حوضا يشرب منه هو وأتباعه، كما قال ﷺ : « إن لكل نبي حوضا، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة » رواه الترمذي وصححه الألباني– رحمه الله – .

والحوض الوارد في الحديث: هو حوض النبي ﷺ، وجمع الحوض: حياض وأحواض، وهو مجمع الماء .

وهو غير نهر الكوثر الوارد في قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ وذلك لأن الكوثر هو النهر الذي وعد الله به نبيه ﷺ في الجنة، والحوض هو مجمع الماء في أرض المحشر، وماؤه مستمد من الكوثر، فالكوثر والحوض ماؤهما واحد، إلا أن أحدهما في الجنة، والآخر في أرض المحشر، لذلك يطلق على كل منهما اسم الكوثر ، ويستدل على ذلك بقول النبي ﷺ : « يَغُت فيه ميزابان، يمدّانه من الجنة، أحدهما من ذهب، والآخر من ورِق » . (يغت): أي يدفق دفقا شديدا متتابعاً.

فتبين بهذا أن ماء الحوض مستمد من نهر الكوثر في الجنة .

وقد وردت أدلة كثيرة عن الرسول ﷺ في بيان صفة الحوض ، وكلها تفيد أنه من نعم الله الجليلة على نبيه ﷺ ، وعلى أمته من بعده قد اختصت به ، وأنه لا يشرب منه من خرج على اتباع المصطفى ، وانساق وراء الأهواء والشبه ، ففي الحديث : « حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، ماؤه أبيض من الورِق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، فمن شرب منه: فلا يظمأ بعده أبداً » .

قال القرطبي في " المفهم ": مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به: أن الله سبحانه وتعالى قد خص نبيه محمدا ﷺ بالحوض المصرَّح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي: إذ روى ذلك عن النبي ﷺ من الصحابة نيّف على الثلاثين، منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين، وفي غيرهما بقية ذلك مما صح نقله واشتهرت رواته ثم رواه عن الصحابة من التابعين أمثالهم ومن بعدهم اضعاف اضعافهم وهلم جرا واجمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف، وانكرت

ذلك طائفة من المبتدعة وأحالوه على ظاهره وغلو في تأويله من غير استحالة عقلية ولا عادية تلزم من حمله على ظاهرة وحقيقته ولا حاجة تدعو إلى تأويله، فَخَرَق من حرّفه إجماع السلف وفارق مذهب أئمة الخلف. وقد أنكره الخوارج وبعض المعتزلة

* وفي الحوض مسألة اختلف فيها الكثير من العلماء وهي زمن وروده للشرب منه وهي من المسائل التي لا يضر الجهل بها :

القول **الأول**: أن الحوض بعد الصراط: وقد ذهب إليه البخاري رحمه الله: وذلك لأنه أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط وهي إشارة منه إلى ان الورود على الحوض يكون بعد نصب الصراط والمرور عليه ، وعلل بعض العلماء القائلين بقول البخاري في هذه المسألة فقالوا : إنه من المعلوم أن الصراط جسر على جهنم وأنه بين الموقف والجنة وأن المؤمنين يمرون عليه لدخول الجنة فلو كان الحوض قبله لحالت النار بينه وبين الماء الذي يصب من الكوثر في الحوض وظاهر الحديث ان الحوض بجانب الجنة لينصب فيه الماء من النهر الذي داخلها وفي حديث بن مسعود ﷺ عند أحمد: (ويفتح نهر الكوثر إلى الحوض).

وقد قال القاضي عياض رحمه الله: ظاهر قوله ﷺ في حديث الحوض: (من شرب منه لم يظمأ بعدها أبدا): يدل على أن الشرب منه يقع بعد الحساب والنجاة من النار لأن ظاهر حال من لا يظمأ ان لا يعذب بالنار ولكن يحتمل ان من قدر عليه التعذيب منهم ان لا يعذب فيها بالظمأ بل بغيره.

القول **الثاني**: أن الحوض قبل الصراط، وقد أورد القرطبي وابن حجر رحمهما الله: أقوال العلماء في ذلك ، والذي يظهر أن ما ذهب إليه القرطبي رحمه الله إلى أن الحوض يكون قبل الصراط ، واستدل بحديث البخاري أن النبي ﷺ قال: « بينما أنا قائم على الحوض إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم ، فقلت: أين؟، قال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟، قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة ، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلم ، قلت: أين؟، قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟، قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل هَمَل النَّعَم ».

قال ابن حجر في الفتح :(قوله: «فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النَّعَم» ، يعني: من هؤلاء الذين دنوا من الحوض، وكادوا يردونه، فصدوا عنه، و(الهَمَل): بفتحتين، الإبل بلا راع ، ... والمعنى: أنه لا يَرِدُه منهم إلا القليل؛ لأن الهَمَل في الإبل قليل بالنسبة لغيره).

واضح أن القلة هنا نسبية، أي: أن نسبة من يرد الحوض كبيرة، لكن الذين يطردون أكبر من الذين يشربون ..

يقول القرطبي في وجه الاستدلال به على أن الحوض قبل الصراط : (فهذا الحديث مع صحته: أدل دليل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط ؛ لأن الصراط إنما هو جسر على جهنم ممدود يجاز عليه ، فمن جازه سلم من النار) .

* يَرِدُ حوض النبي ﷺ في الجملة كل مؤمن لم يتلبّس بمانع من موانع ورود الحوض التي تضمنتها الأحاديث السابقة، مثل الردة، قال القرطبي في "التذكرة": (قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله: فهو من المطرودين عن الحوض المُبْعَدين عنه، وأشدهم طردا من خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، .. والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدِّلون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق، وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستحفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع، ثم البعد قد يكون في حال، ويقربون بعد المغفرة، إن كان التبديل في الأعمال، ولم يكن في العقائد) .

وقد ذكر النبي ﷺ بعض الأعمال الخاصة التي هي أسباب لنيل شرف ورود حوضه ﷺ منها :

١- الصبر عند الأَثَرة: ويدل عليه حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ في وصيته للأنصار رضي الله عنهم: « إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» متفق عليه، ومعنى ستلقون بعدي أثرة، أي: أن الأمراء بعدي يُفَضِّلون عليكم غيركم ممن هو أقل كفاءة منكم.

٢- عدم الدخول على أئمة الجور ممالأةً ونفاقاً لهم، فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « إنه ستكون بعدي أمراء، من دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم: فليس مني ولست منه، وليس يَرِدُ عليّ الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم: فهو مني وأنا منه، وسَيَرِدُ عليّ الحوض » رواه الترمذي والنسائي .

وهذا هو حوض النبي ﷺ بأوصافه، وأوصاف أهله، وأوصاف المطرودين عنه، حتى يعلم المسلم السبيل إليه، في يوم عظم خطره، واشتد حره .

النص الرابع :

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ سئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال: « هم في الظلمة دون الجسر» .

شرح الحديث :

عندما يحين الوقت الذي تجمع فيه الخلائق ، يبدل الله ﷻ الأرض التي تحشر عليها الخلائق بأرض أخرى، ويبدل السماوات كذلك .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « يطوي الله ﷻ السماوات يوم القيامة ثم يأخذهم بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك، أين الجبارون ؟، أين المتكبرون ؟، ثم يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك، أين الجبارون ؟، أين المتكبرون؟، وهذا بعد فناء المخلوقات ، يطوي سبحانه وتعالى السماوات ويأخذهن بيمينه والأرضين بشماله ».

وفي هذا دلالة على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته ، فهو الأول فليس قبله شيء ، والآخر فليس بعده شيء .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : جاء حَبْرٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : (يا محمد، أو يا أبا القاسم: إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أنا الملك)، فضحك رسول الله ﷺ تعجبا مما قاله الحَبْر تصديقا له ، ثم قرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ففي الأحاديث: الإخبار عن حال السماوات والأرض يوم القيامة؛ بل عن حال المخلوقات جميعا، وعظم قدرته سبحانه، ثم مآل المخلوقات، وما سيكون منه ﷻ حيث يبدل الأرض غير الأرض والسماوات، كما ثبت في الأحاديث ، وكما هو ظاهر الآية .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ في قوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾. قال : « أرض بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل فيها خطيئة ، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خلقوا حتى يلجمهم العرق » .

وتسمى هذه الأرض بأرض المحشر عن سهل بن سعد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ، ليس فيها علم لأحد ».

قال القاضي عياض : (المراد أنها ليس فيها علامة سكنى ولا بناء ولا أثر ولا شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات ، كالجبل والصخرة البارزة . وفيه تعريض بأرض الدنيا وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة بها) . .

فبعدما يذهب بالكفرة الملحدين، والمشركين الضالين إلى دار البوار: جهنم يصلونها، وبئس القرار، يبقى في عرصات القيامة أتباع الرسل الموحدون، وفيهم أهل الذنوب والمعاصي، وفيهم أهل النفاق، وتلقى عليهم الظلمة قبل الجسر كما في الحديث « هم في الظلمة دون الجسر».

والجسر: الصراط، وهو : جسر ممدود على متن جهنم ، يرده الأولون والآخرون.

يقول ابن أبي العز الحنفي في شرحه للطحاوية: وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم. روى البيهقي بسنده عن مسروق، عن عبدالله، قال: « يجمع الله الناس يوم القيامة إلى أن قال: فمنهم من يُعطَى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يُعطَى نوره فوق ذلك، ومنهم من يُعطَى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يُعطَى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يُعطَى نوره في إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ أخرى، إذا أضاء قدّم قدمه، وإذا أطفأ قام، قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دحض مزلة، ويقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل، يرمل رملاً على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد، وتعلق يد، وتخر رجل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون فإذا خلصوا، قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك، بعد أن أرناك، لقد أعطانا ما لم يعط ». والحديث رواه الطبراني ، والحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ. وقال الألباني في " شرح العقيدة الطحاوية" : صحيح. .

وقد حدثنا تبارك وتعالى عن مشهد مرور المؤمنين على الصراط، فقال: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة الحديد: ١٢-١٥].

وفي بيان صفة الصراط يقول أبو سعيد الخدري ﷺ : « بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف » .

ويروي في ذلك حديث آخر مطول فيه أن رسول الله ﷺ قال: « ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم »، قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟، قال: « مدحضة مزلة، عليه خطاطيف ، وكلاليب ، وحسكة مفلطحة ؛ لها شوكة عقيفة تكون بنجد، يقال له: السعدان، المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فناجٍ مُسَلَّم وناجٍ مخدوش ، ومكدوس في نار جهنم ، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً » .

قوله: «مدحضة »من دحضت رجله دحضا زلقت.

قوله: «مزلة »من زلت الأقدام سقطت.

قوله: «خطاطيف» جمع خُطاف، وهو الحديدة المعوجة كالكلوب يختطف بها الشيء.

قوله:« كلاليب »: جمع كلوب بفتح الكاف وهو حديدة معطوفة الرأس يعلق عليها اللحم، وقيل: الكلوب الذي يتناول به الحداد الحديد من النار، كذا في كتاب ابن بطال، وفي كتاب ابن التين: هو المعقف الذي يخطف به الشيء.

قوله: « حَسَكَة » بفتحات: وهي شوكة صلبة معروفة، قاله ابن الأثير. وقال صاحب التهذيب وغيره: الحسك نبات له ثمر خشن يتعلق بأصواف الغنم وربما اتخذ مثله من حديد، وهو من آلات الحرب، وقال الجوهري: الحسك حسك السعدان، والحسكة ما يعمل من حديد على مثاله.

قوله: « مُفَلْطَحة » بضم الميم وفتح الفاء وسكون اللام وفتح الطاء المهملة وبالحاء المهملة أي: عريضة، يقال: فلطح القرص إذا بسطه وعرضه.

قوله: «عقيفاء » بضم العين المهملة وفتح القاف وسكون الياء آخر الحروف وبالفاء ممدودا، ويروى: « عقيفة » على وزن كريمة وهي المنعطفة المعوجة.

وله: « شوك السعدان »: هو في أرض نجد وهو نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب.

* والصراط خلاف القنطرة ففي حديث البخاري: إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة..

والقنطرة تطلق في اللغة على الجسر كما قال صاحب اللسان، وقد ذكر العيني في شرح البخاري عند الكلام على حديث البخاري السابق أن ابن التين قال: القنطرة كل شيء ينصب على عين أو واد، وذكر أن القرطبي سماها الصراط الثاني. وقال ابن حجر في الفتح: الذي يظهر أنها طرف الصراط مما يلي الجنة، ويحتمل أن تكون في غيره بين الصراط والجنة..

النص الخامس :

رواه مسلم في صفة الجنة، باب إثبات الحساب بسنده عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ : « من حوسب عذب » ، فقلت: أليس قد قال الله ﷻ: ﴿فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾ ؟ فقال: « ليس ذاك الحساب، ومن نوقش الحساب عذب» وفي رواية « هلك »

شرح الحديث :

الْمُرَادَ بِالْمُحَاسَبَةِ: تَحْرِيرُ الْحِسَابِ، فَيَسْتَلْزِمُ الْمُنَاقَشَةَ «وَمَنْ نوقش الحساب فَقَدْ عذب».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي " الْمُفْهِمِ " : قَوْلُهُ: « عُذِّبَ »: أَيْ فِي النَّارِ جَزَاءً عَلَى السَّيِّئَاتِ الَّتِي أَظْهَرَهَا حِسَابُهُ، وَقَوْلُهُ: « هَلَكَ » أَيْ بِالْعَذَابِ فِي النَّارِ، قَالَ وَتَمَسَّكَتْ السيدة عَائِشَةُ رضي الله عنها بِظَاهِرِ لَفْظِ الْحِسَابِ لِأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ .

والْحِسَابَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ : ﴿ فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تُعْرَضَ أَعْمَالُ الْمُؤْمِنِ عَلَيْهِ حَتَّى يَعْرِفَ مِنَّةَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي سَتْرِهَا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَفِي عَفْوِهِ عَنْهَا فِي الْآخِرَةِ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ فِي النَّجْوَى .

قَالَ عِيَاضٌ : قَوْلُهُ : « عُذِّبَ » لَهُ مَعْنَيَانِ :

أَحَدُهُمَا: أَنَّ نَفْسَ مُنَاقَشَةِ الْحِسَابِ وَعَرْضِ الذُّنُوبِ وَالتَّوْقِيفِ عَلَى قَبِيحِ مَا سَلَفَ وَالتَّوْبِيخِ تَعْذِيبٌ.

وَالثَّانِي : أَنَّهُ يُفْضِي إِلَى اسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ إِذْ لَا حَسَنَةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِإِقْدَارِهِ عَلَيْهَا وَتَفْضِيلِهِ عَلَيْهِ بِهَا وَهِدَايَتِهِ لَهَا وَلِأَنَّ الْخَالِصَ لِوَجْهِهِ قَلِيلٌ . وَيُؤَيِّدُ هَذَا الثَّانِيَ قَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: « هَلَكَ ».

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله: (التَّأْوِيلُ الثَّانِي هُوَ الصَّحِيحُ؛ لِأَنَّ التَّقْصِيرَ غَالِبٌ عَلَى النَّاسِ، فَمَنِ اسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسَامَحْ: هَلَكَ، وَقَالَ غَيْرُهُ: وَجْهُ الْمُعَارَضَةِ أَنَّ لَفْظَ الْحَدِيثِ عَامٌّ فِي تَعْذِيبِ كُلِّ مَنْ حُوسِبَ، وَلَفْظُ الْآيَةِ دَالٌّ عَلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ لَا يُعَذَّبُ، وَطَرِيقُ الْجَمْعِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحِسَابِ فِي الْآيَةِ: الْعَرْضُ وَهُوَ إِبْرَازُ الْأَعْمَالِ وَإِظْهَارُهَا فَيُعَرِّفُ صَاحِبَهَا بِذُنُوبِهِ ثُمَّ يَتَجَاوَزُ عَنْهُ) .

۞۞۞

النص السادس :

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٧١-٧٢]

شرح الآية :

اخْتَلَفَ أَهْل الْعِلْم فِي مَعْنَى الْوُرُود الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّه فِي هَذَا الْمَوْضِع:

قَالَ بَعْضهمْ : الدُّخُول .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هُوَ الْمَرور.

وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ الدُّخُول ، وَلَكِنَّهُ عَنَى الْكُفَّار دُون الْمُؤْمِنِينَ، وذكروا قول اِبْن عَبَّاس ﷺ ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدهَا ﴾ يَعْنِي الْكُفَّار ، قَالَ : لَا يَرِدهَا مُؤْمِن، وكان عِكرِمَة يَقُول: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدهَا ﴾ يَعْنِي الْكُفَّار .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ الْوُرُود عَامّ لِكُلِّ مُؤْمِن وَكَافِر ، غَيْر أَنَّ وُرُود الْمُؤْمِن الْمُرُور ، وَوُرُود الْكَافِر الدُّخُول.

وبعضهم فسر الورود المذكور هو : الإشراف عليها والقرب منها ، دون الدخول وهذا قول الحسن وقتادة، واحتج من قال بأن الورود قد يأتي في القرآن الكريم بمعنى الإشراف والمقاربة ،كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ ، ووجه استدلالهم قالوا : هذا ورود مقاربة ، وإشراف عليه دون الدخول فيه. و استدلوا بقوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾ ومن المعلوم أن ذلك الوارد لم يدخل الماء ، كذلك احتجوا باللغة العربية بأن العرب تقول وردت القافلة البلد ، وإن لم تدخلها ، ولكن قربت منها ، ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى في معلقته :

ولما وردن الماء زرقا جمامه تركن عصي الحاضر المتخيم

* **والراجح:** قال ابن أبي العز الحنفي: (اختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ما هو؟، والأظهر والأقوى: أنه المرور على الصراط).

وقال النووي: (والصحيح أن المراد بالورود في الآية: المرور على الصراط، وهو جسر منصوب على جهنم ، فيقع فيها أهلها ، وينجو الآخرون).

ووجه استدلالهم به : أنَّ ورود النار لا يستلزم دخولها ، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[سورة هود :٥٨]

ولم يكن العذاب أصابهم ، ولكن أصاب غيرهم ، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك وكذلك حال الوارد في النار يمرون فوقها على الصراط : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً ﴾

واستدلوا بحديث أُمّ مُبَشِّر رضي الله عنها اِمْرَأَة زَيْد بْن حَارِثَة ﷺ قَالَتْ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ وَهُوَ فِي بَيْت حَفْصَة رضي الله عنها: « لَا يَدْخُل النَّار أَحَد شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَة»، قَالَتْ: فَقَالَتْ حَفْصَة رضي الله عنها: يَا رَسُول اللَّه ، أَلَيْسَ اللَّه يَقُول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدهَا ﴾ ؟ فَقَالَ رَسُول اللَّه : « فَمَهْ ﴿ ثُمَّ يُنَجِّي اللَّه الَّذِينَ اِتَّقَوْا ﴾ » .

والصراط: جسر على متن جهنم يمر عليه الناس، وقد يسقط بعض الناس؛ لشدة معاصيه وكثرة معاصيه، فيعاقب بقدر معاصيه، ثم يخرجه الله من النار إذا كان موحداً مؤمنا، وأما الكفار فلا يمرون، بل يساقون إلى النار، ويحشرون إليها نعوذ بالله من ذلك، لكن بعض العصاة الذين لم يعفو الله عنهم قد يسقط بمعاصيه التي مات عليها، لم يتب كالزنا، وشرب المسكر، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، وأشباه ذلك من المعاصي الكبيرة، صاحبها تحت مشيئة الله كما قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ [سورة النساء:٤٨] وهو سبحانه لا يغفر الشرك لمن مات عليه، ولكنه يغفر ما دون ذلك من المعاصي لمن يشاء –سبحانه وتعالى–.

وبعض أهل المعاصي يدخل النار لا يغفر لهم ، كما تواترت في ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ فقد صح عن رسول الله ﷺ في الأحاديث الكثيرة أن بعض العصاة يدخلون النار ويقيم فيها ما شاء الله، فقد تطول إقامته؛ لكثرة معاصيه التي لم يتب منها، وقد تقل ويشفع النبي ﷺ – للعصاة عدة شفاعات يحد الله له حداً، فيخرجهم من النار فضلاً منه –سبحانه وتعالى– عليهم؛ لأنهم ماتوا على التوحيد والإسلام، لكن لهم معاصي لم يتوبوا منها، وهكذا تشفع الملائكة، يشفع المؤمنون، يشفع الأفراط، ويبقى أناس في النار من العصاة لا يخرجون بالشفاعة، فيخرجهم الله –جل وعلا– فضلاً منه ﷻ يخرجهم من النار بفضله؛ لأنهم ماتوا على التوحيد، ماتوا على الإسلام، لكن لهم معاصي ماتوا عليها لم يتوبوا فعذبوا من أجلها، ثم بعد مضي المدة التي كتبها الله عليهم وبعد تطهيرهم بالنار يخرجهم الله من النار إلى الجنة فضلاً منه –سبحانه وتعالى–، وبما ذكرنا يتضح معنى الورود وأن قوله –سبحانه وتعالى– وإن منكم إلا واردها. يعني المرور فقط لأهل الإيمان، وأن بعض العصاة قد يسقط في النار، ولهذا في الحديث: « فناجٍ مسلم ومكدس في النار».

فالمؤمن السليم ينجو وبعض العصاة كذلك، وبعض العصاة قد يخر، ويسقط.

النص السابع :

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [سورة هود : ١٠٦ – ١٠٨].

شرح الآية :

قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِير وَشَهِيق﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس: الزَّفِير فِي الْحَلْق، وَالشَّهِيق فِي الصَّدْر، أَيْ تَنَفُّسهمْ زَفِير وَأَخْذهمْ النَّفْس شَهِيق لِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ الْعَذَاب عِيَاذًا بِاَللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

قوله:﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَات وَالْأَرْض ﴾ قَالَ ابْن جَرِير الطبري: (مِنْ عَادَة الْعَرَب إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَصِف الشَّيْء بِالدَّوَامِ أَبَدًا قَالَتْ: هَذَا دَائِم دَوَام السَّمَاوَات وَالْأَرْض، وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ هُوَ بَاقٍ مَا اِخْتَلَفَ اللَّيْل وَالنَّهَار فَخَاطَبَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِمَا يَتَعَارَفُونَهُ بَيْنهمْ فَقَالَ : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَات وَالْأَرْض ﴾)

قال ابن كثير : (وَقَوْله: ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبّك إِنَّ رَبّك فَعَّال لَمَا يُرِيد ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿ النَّار مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّه إِنَّ رَبّك حَكِيم عَلِيم ﴾، وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَاد مِنْ هَذَا الِاسْتِثْنَاء عَلَى أَقْوَال كَثِيرَة حَكَاهَا الشَّيْخ أَبُو الْفَرَج ابْن الْجَوْزِيّ فِي كِتَابِهِ " زَاد الْمَسِير" وَغَيْره مِنْ عُلَمَاء التَّفْسِير وَنَقَلَ كَثِيرًا مِنْهَا الْإِمَام أَبُو جَعْفَر بْن جَرِير – رَحِمَهُ اللَّه – فِي كِتَابه وَاخْتَارَ هُوَ مَا نَقَلَهُ عَنْ خَالِد بْن مَعْدَان وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَابْن سِنَان وَرَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم عَنْ اِبْن عَبَّاس وَالْحَسَن أَيْضًا أَنَّ الِاسْتِثْنَاء عَائِد عَلَى الْعُصَاة مِنْ أَهْل التَّوْحِيد مِمَّنْ يُخْرِجُهُمْ اللَّه مِنْ النَّار بِشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ الْمَلَائِكَة وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَشْفَعُونَ فِي أَصْحَاب الْكَبَائِر ثُمَّ تَأْتِي رَحْمَة أَرْحَم الرَّاحِمِينَ فَتُخْرِج مِنْ النَّار مَنْ لَمْ يَعْمَل خَيْرًا قَطُّ وَقَالَ يَوْمًا مِنْ الدَّهْر لَا إِلَه إِلَّا اللَّه كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَخْبَار الصَّحِيحَة الْمُسْتَفِيضَة عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ بِمَضْمُونِ ذَلِكَ مِنْ حَدِيث أَنَس وَجَابِر وَأَبِي سَعِيد وَأَبِي هُرَيْرَة وَغَيْرهمْ مِنْ الصَّحَابَة وَلَا يَبْقَى بَعْد ذَلِكَ فِي النَّار إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُود فِيهَا وَلَا مَحِيد لَهُ عَنْهَا ، وَهَذَا الَّذِي عَلَيْهِ كَثِير مِنْ الْعُلَمَاء قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي تَفْسِير هَذِهِ الْآيَة الْكَرِيمَة).

وقد أجاب السلف بعدد من الأجوبة على ذلك الاشتباه وقد أوردها ابن أبي العز رحمه الله في بيان إجماع أهل العلم على أبدية الجنة، فقال: (واختلف السلف في هذا الاستثناء، فقيل: معناه إلا مدة مكثهم في النار ، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها. وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف. وقيل: إلا

مدة مقامهم في القبور والموقف . وقيل: هو استثناء الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه ، بل تجزم بضربه .. إلى آخر ما ذكر من أقوال، ثم قال : وعلى كل تقدير ، فهذا الاستثناء من المتشابه ، وقوله : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] محكم ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص:٥٤] وقوله : ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥] وقوله : ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]) .

وكان هذا التوجيه منه – رحمه الله – من أحسن ما قيل في تفسير الاستثناء ، حيث كان الإعراض عن الخوض في المتشابه ، والرد إلى المحكم ؛ مما امتدح الله تعالى عباده به ؛ لأنه سيمة التسليم والإذعان، الذي يقتضيه الإيمان بالله تعالى والرضى بدينه.

ومع أن هذا القول هو المجمع عليه عند أهل العلم ، إلا أن هناك من خالف ذلك الإجماع فيما يتعلق بخلود النار ، فقال بفنائها مستندا إلى عدد من الأدلة السمعية والعقلية ، وقد أورد الإمام ابن القيم– رحمه الله – أدلة القائلين بذلك ، مع ميله الواضح إلى ترجيح ما ذهبوا إليه ، ولم يكن هذا هو قوله الوحيد ، بل له قول آخر انتصر له في عدد من مؤلفاته وهو القول بالتوقف ، حيث استند في ذلك إلى الاستثناء الوارد في الآية ، إذ إرجاع الأمر إلى مشيئة الله وحده يقضي بعدم التقديم بين يديه بغير دليل، ولكن الصحيح في المسألة أن الأدلة على بقاء النار من المحكم البين ، الذي لا يرد عليه أدنى اعتراض ، وليس في الجزم به ما يعارض أدب التلقي بالقبول عن الله ورسوله ، بل القول به هو حقيقة ثمرة الرد إليهما.

وَقَوْله : ﴿ إِنَّ رَبّك فَعَّال لِمَا يُرِيد ﴾ يَقُول تَعَالَى ذِكْره : إِنَّ رَبّك يَا مُحَمَّد لَا يَمْنَعهُ مَانِع مِنْ فِعْل مَا أَرَادَ فِعْله بِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْره مِنْ اِنْتِقَام مِنْهُ ، وَلَكِنَّهُ يَفْعَل مَا يَشَاء ، فَيَمْضِي فِعْله فِيهِمْ وَفِيمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقه فِعْله وَقَضَاءَهُ .

أما قوله تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ يقول ابن كثير: وَهُمْ أَتْبَاع الرُّسُل.

﴿ فَفِي الْجَنَّة ﴾ أَيْ فَمَأْوَاهُمْ الْجَنَّة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا.

﴿ مَا دَامَتْ السَّمَاوَات وَالْأَرْض إِلَّا مَا شَاءَ رَبّك ﴾: مَعْنَى الِاسْتِثْنَاء هَهُنَا أَنَّ دَوَامهمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ النَّعِيم لَيْسَ أَمْرًا وَاجِبًا بِذَاتِهِ بَلْ هُوَ مَوْكُول إِلَى مَشِيئَة اللَّه تَعَالَى فَلَهُ الْمِنَّة عَلَيْهِمْ دَائِمًا وَلِهَذَا يُلْهَمُونَ التَّسْبِيح وَالتَّحْمِيد كَمَا يُلْهَمُون النَّفَس .

وَقَالَ الضَّحَّاك وَالْحَسَن الْبَصْرِيّ : هِيَ فِي حَقّ عُصَاة الْمُوَحِّدِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّار ثُمَّ أُخْرِجُوا مِنْهَا وَعَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿عَطَاء غَيْر مَجْذُوذ ﴾ أَيْ مَقْطُوع قَالَهُ مُجَاهِد وَابْن عَبَّاس وَأَبُو الْعَالِيَة وَغَيْر وَاحِد لِئَلَّا يُتَوَهَّم بَعْد ذِكْره الْمَشِيئَة أَنَّ ثَمَّ اِنْقِطَاع أَوْ لَبْس أَوْ شَيْء بَلْ حَتَمَ لَهُ بِالدَّوَامِ وَعَدَم الِانْقِطَاع كَمَا بَيَّنَ هُنَاكَ أَنَّ عَذَاب أَهْل النَّار فِي النَّار دَائِمًا مَرْدُود إِلَى مَشِيئَتِهِ وَأَنَّهُ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَته عَذَّبَهُمْ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ رَبّك فَعَّال

لِمَا يُرِيد ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ لَا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ وَهُنَا طَيَّبَ الْقُلُوب وَثَبَّتَ الْمَقْصُود بِقَوْلِهِ : ﴿ عَطَاء غَيْر مَجْذُوذ ﴾.

وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: « يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَة كَبْش أَمْلَح فَيُذْبَح بَيْن الْجَنَّة وَالنَّار ثُمَّ يُقَال : يَا أَهْل الْجَنَّة خُلُود فَلَا مَوْت وَيَا أَهْل النَّار خُلُود فَلَا مَوْت » وَفِي الصَّحِيح أَيْضًا : « فَيُقَال : يَا أَهْل الْجَنَّة إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا » .

❁❁❁

انتهى المنهج